مفهوم العزلة عن نيقولاي برديائف

The Concept of Loneliness by Nikolai Berdyaev

إعداد

أ.م.د. دعاء محمد عبد النظير حماد

أستاذ الفلسفة الحديثة والمعاصرة المساعد

كلية الاداب – جامعة الاسكندرية

دورية الانسانيات – كلية الاداب – جامعه دمنهور –

العدد (65)- **الجزء الثالث** –2025

مفهوم العزلة عن نيقولاي برديائف

أ.م.د. دعاء محمد عبد النظير حماد

الملخص:

لم تنل مشكلة العزلة غير حظ ضئيل من النظر الفلسفي، رغم أنها تلقى ضوءًا شديدًا على الأنا، كما أنها تتصل اتصالاً واضحًا بمشكلة المعرفة التي تساعد على الانتصار على العزلة. وهنا يرى الفيلسوف الروسي نيقولا برديائف أن الإنسان لا يدرك شخصيته وأصالته وتفرده إلا عندما يكون وحيدًا. فالعزلة، كما يقصدها برديائف، استعادة للذات الحقيقية عن طريق التأمل، كما قد يكون هدفها هو الثقافة الروحية، والبحث عن الأصالة الوجودية، والتجربة الصوفية. وهنا تكون العزلة إيجابية كاختيار مرغوب فيه، وخاصة لفهم تأثير العزلة على الحياة الباطنة الروحية. فقد تكون العزلة قوة دافعة للارتقاء الروحي، ومعرفة الذات، وضبط النفس، والسلام الداخلي، وقوة دافعة لمعرفة عميقة بذاته، مما يسهل بشكل كبير الحوار الداخلي والبحث عن القيم والدوافع، ويسهم في فهم أعمق للمعنى الحقيقي للحياة، وفي رسم ملامح شخصية متناغمة.ويمكن اعتبار النضال الغنوصي سعيًا إلى الأصالة والحرية ضمن ما يُنظر إليه على أنه مكان للعزلة. ففي الاتصال الغنوصي تشعر الذات بالعزلة، أي الانفصال عن العالم الموضوعي، عن السلطة، أي سلطة، والسعي نحو الأصالة والحرية والتواصل مع الروح الإلهي. فالغنوصية رؤية قوية ونبيلة بالقدر نفسه للإنسان بوصفه روحًا إلهية حرية، تقف ضد قوى استعباد خبيثة. إذ إن موضوع المعرفة الغنوصية هو الله، حدوثه في النفس يحول العارف نفسه بجعله مشاركًا في الوجود الإلهي. وقد أشار برديائف إلى رؤيته الغنوصية، وارتباط الحرية بالغنوصية، فالحرية حرية العبقرية (الحرية الإبداعية)، حرية الروح. وهنا تنطوي غنوصية برديائف على شكل وجودي من المعرفة يربط العارف بالوجود، وربما اقترب برديائف من كونه صوفيًا أكثر منه غنوصيًا. إذ إن جوهر الإنسان هو معرفة الذات والله. فالغنوصية شكل من أشكال التصوف تنحو نحو الحرية والروح. والروح والحرية شيء واحد عند برديائف. إذن مهمة برديائف هي جعل الذات الباطنة هي غاية الحياة الإنسانية. وبناء عليه تكون غاية حياتك هي التواصل مع الله.

الكلمات الدالة:

العزلة . الحرية الإبداعية . الغنوصية . التصوف . الأبدية . الاتصال الروحي . الأصالة الوجودية . الروح . الذات . الأنا . الآخر . الحدس . المتعالي – الروح الإلهي . التواصل مع الله.

Abstract:

The problem of Loneliness (solitude) has received little philosophical attention, even though it sheds significant light on the ego and is clearly linked to the problem of knowledge, which helps one overcome Loneliness. Here, the Russian philosopher Nikolai Berdyaev argues that a person only realizes his or her personality, authenticity, and uniqueness when alone. Loneliness, as Berdyaev means, is the restoration of the true self through contemplation. Its goal may also be spiritual culture, the search for existential authenticity, and mystical experience. Here, Loneliness is a positive and desirable choice, especially for understanding its impact on the inner spiritual life. Loneliness may be a driving force for spiritual ascent, self-knowledge, self-discipline, inner peace, and a driving force for profound self-knowledge. This greatly facilitates internal dialogue and the search for values and motivations, contributes to a deeper understanding of the true meaning of life, and contributes to shaping a harmonious personality.Gnostic struggle can be seen as a striving for authenticity and freedom within what is perceived as a place of Loneliness. In Gnostic communication, the self experiences Loneliness —that is, separation from the objective world, from authority (any authority), and the striving for authenticity, freedom, and communion with the divine spirit. Gnosticism is an equally powerful and noble vision of man as a free, divine spirit, standing against the insidious forces of enslavement. The object of Gnostic knowledge is God; His occurrence in the soul transforms the knower, making him a participant in the divine being. Berdyaev referred to his Gnostic vision and the connection of freedom to Gnosticism. Freedom is the freedom of genius (creative freedom), the freedom of spirit. Here, Berdyaev's Gnosticism entails an existential form of knowledge that connects the knower to existence. Perhaps Berdyaev came closer to being a Sufi than a Gnostic. For the essence of man is knowledge of the self and God. Gnosticism is a form of mysticism that tends toward freedom and spirit. For Berdyaev, spirit and freedom are one. Berdyaev's mission, then, is to make the inner self the goal of human life. Consequently, the goal of your life is to connect with God.

Keywords:

Loneliness (Solitude) - Creative freedom – Gnosticism – Sufism – Eternity - Spiritual connection - Existential authenticity – Soul – Self – Other – Intuition – The Transcendent - Divine spirit - Connection with God.

المقدمـــــة:

لم تنل مشكلة العزلة غير حظ ضئيل من النظر الفلسفي، رغم أنها تلقى ضوءًا شديدًا على الأنا، كما أنها تتصل اتصالاً واضحًا بمشكلة المعرفة التي تساعد على الانتصار على العزلة. وهنا يرى الفيلسوف الروسي نيقولا برديائف أن الإنسان لا يدرك شخصيته وأصالته وتفرده إلا عندما يكون وحيدًا. فالعزلة، كما يقصدها برديائف، استعادة للذات الحقيقية عن طريق التأمل، كما قد يكون هدفها هو الثقافة الروحية، والبحث عن الأصالة الوجودية، والتجربة الصوفية. وهنا تكون العزلة إيجابية كاختيار مرغوب فيه، وخاصة لفهم تأثير العزلة على الحياة الباطنة الروحية. فقد تكون العزلة قوة دافعة للارتقاء الروحي، ومعرفة الذات، وضبط النفس، والسلام الداخلي، وقوة دافعة لمعرفة عميقة بذاته، مما يسهل بشكل كبير الحوار الداخلي والبحث عن القيم والدوافع، ويسهم في فهم أعمق للمعنى الحقيقي للحياة، وفي رسم ملامح شخصية متناغمة.

ولذا فعندما تزهر العزلة بأولى زهورها الروحية، قد يلعب الشخص دورًا إيجابيًا ومفيدًا للغاية من خلال مشاركته الفعلية في المجتمع. وقد يعود لاحقًا للعزلة، لمزيد من التمارين الروحية وممارسة الفضائل، بروح معرفة الذات والسلام الداخلي. وهنا يكون التكيف السلمي مع العزلة فعالاً إذا رغب الشخص في اكتشاف هويته الوجودية الحقيقية وتحقيق إرادة الله في حياته الشخصية (الباطنة/ الروحية).

ومن الخطأ اعتبار برديائف انعزاليًا، أي شخص ينكر واقع الآخرين بالنسبة له، وإنما على العكس من ذلك، ولكنه أغراه المتعالي وجذبه إليه فتطلع إلى الروح الإلهي والاتصال به. ومن ثم، فإن عالم برديائف هو عالم الروح، والرؤية الحدسية، والنزعة الصوفية، أو إن شئنا القول، الغنوصية، وهو عالم الحرية الإبداعية والنشاط الخالق للشخصية الإنسانية. فالإنسان في جوهره مبدع، وقد أخذ إبداعه صورة خلق قيم جديدة منبثقة من طبيعة الله (متسامية / متعالية) على الإنسان، وأسمى نزوع للإنسان متجه نحو الله.

يرفض برديائف أي سلطة تقهر حرية الإنسان، ويرى أن الإنسان مدعو للحرية. فالرجل الذي يرفض الحرية ينكر طبيعته الحقة، وينزل عن حقوقه الروحية. وعنده أن الإنسان يلجأ إلى طرق كثيرة لاستعباد نفسه، ولكن تحقيق الحرية يستلزم جهدًا ومعركة وصبرًا على آلام الحياة. فالشخصية الخلاقة هي محور فلسفة برديائف ومناط تفكيره، والغاية هي النمو الحر الكامل للشخصية. فالشخصية كفاح مستمر وجهاد دائم وانتصار متواصل على الاستعباد.

وهنا يتضح هدف برديائف؛ لقد وهب برديائف حياته للبحث عن الحقيقة والكشف عن معنى الحياة، وهذا معناه البحث عن الأبدي.

لطالما شعر برديائف بالعزلة، أو بالأحرى بالغربة الميتافزيقية بمعنى أنه يشعر بأنه لا ينتمي إلى هذا العالم الموضوعي، المجرد، الذي يفرض سلطته على الذات. ولكنه في الوقت نفسه ينغمس أكثر من غيره من الفلاسفة في مشاكله، ولكن كما لو كان خارجه، يراقب ويتفحص. وهنا يبدو برديائف متناقضًا، ولكن من أجل أن يجد ذاته متجهًا نحو هدف آخر. فبرديائف، وإن كان يشعر بالعزلة والغربة الميتافيزيقية في هذا العالم، فإنما لأن هذه الغربة تمثل انفصالاً عن العالم الموضوعي، المجرد، من أجل الاتصال بالروح الإلهي. فبينما يعتبر برديائف هذا العالم، عالم معيشتنا الفعلية زائف وغير حقيقي، هناك عالم آخر أكثر أصالة، وأكثر صدقًا، ينتمي إليه أعماق ذاتنا، مما جعله يتمرد على هذا العالم ليحرر نفسه من سلطة العالم، فتأتي الحرية هنا حرية إبداعية تتجه في طريقها نحو الله.

ومن العزلة وتأمل الذات انتقل برديائف للحرية، والتحرر من كل سلطة. وهذه الحرية مرتبطة ومتصلة بالروح الإلهي. وهي ليست ما يمكن أن يطلبه الإنسان من الله، بل ما يطلبه الله من الإنسان. ولذا كانت العزلة خيار العديد من المفكرين الذين رغبوا في عيش حياة وجودية أصيلة في سلام وتأمل روحي وفكري، ليتمكن الإنسان من فهم محبة الله، وإرادته المقدسة النافعة، والتضحية، والشعور بالبهجة، لخوضه تجربة حضوره القلبية، فتغمر محبة الله كيان الإنسان، فيتجسد كيان الإنسان من تلك المحبة والنور الإلهي، حيث تقودنا العزلة إلى الله، ومن خلاله نخرج من العزلة ونعود إلى العالم.

وإجمالاً للقول فإن العزلة: ثقافة روحية، تأمل للذات، واستعادة للذات، تمرد، لجوء للتعالي. إنها (عزلة / غربة / انفصال) عن العالم الموضوعي، المجرد. فتكون (العزلة / الانفصال) مرحلة من مراحل (الاتصال) بالله، و نمو الإنسان الروحي. فالعزلة هي اكتشاف العالم الحقيقي، ومعنى الحياة الخلاق الذي يشير للحرية لا للضرورة، بأسلوب حدسي. ربما يصف برديائف نفسه على أنه (لااجتماعي) وربما يصفه الآخرون بأنه من الفلاسفة اللاتقليديين. ومع هذا فهو يقول عن نفسه إنه اجتماعي، رغم أنه يشعر بغربة تجاه العالم، ولكنه في الوقت نفسه سيظل يشعر شعورًا قويًا إزاء المسائل الاجتماعية، وينخرط فيها، ومع ذلك فإن كل نظام أو حركة اجتماعية يعتبرها برديائف غريبة عليه. فقد كان برديائف مدركًا لسقوطه في عالم غريب، وأنه عابر سبيل، مما جعله يتمرد على العالم ويواجه صراع الأفكار، ليحرر نفسه من سلطة العالم، ولذا نقول إن عزلته إيجابية.

ويمكن اعتبار النضال الغنوصي سعيًا إلى الأصالة والحرية ضمن ما يُنظر إليه على أنه مكان للعزلة. ففي الاتصال الغنوصي تشعر الذات بالعزلة، أي الانفصال عن العالم الموضوعي، عن السلطة، أي سلطة، والسعي نحو الأصالة والحرية والتواصل مع الروح الإلهي. فالغنوصية رؤية قوية ونبيلة بالقدر نفسه للإنسان بوصفه روحًا إلهية حرية، تقف ضد قوى استعباد خبيثة. إذ إن موضوع المعرفة الغنوصية هو الله، حدوثه في النفس يحول العارف نفسه بجعله مشاركًا في الوجود الإلهي. وقد أشار برديائف إلى رؤيته الغنوصية، وارتباط الحرية بالغنوصية، فالحرية حرية العبقرية (الحرية الإبداعية)، حرية الروح. وهنا تنطوي غنوصية برديائف على شكل وجودي من المعرفة يربط العارف بالوجود، وربما اقترب برديائف من كونه صوفيًا أكثر منه غنوصيًا. إذ إن جوهر الإنسان هو معرفة الذات والله. فالغنوصية شكل من أشكال التصوف تنحو نحو الحرية والروح. والروح والحرية شيء واحد عند برديائف. إذن مهمة برديائف هي جعل الذات الباطنة هي غاية الحياة الإنسانية. وبناء عليه تكون غاية حياتك هي التواصل مع الله.

إشكالية البحث:

تساعد هذه الدراسة على إثارة وحل عدد من المشكلات التي تتصل بالإنسان ومصيره، كما تسهم في تطلع الإنسان إلى المستقبل، كما كان يتطلع برديائف دائمًا. كما تثير جدل العزلة، وكيف يشعر برديائف بالعزلة من ناحية، رغم أنه لم يتخل عمن حوله، وعند الانخراط في الظروف الاجتماعية المحيطة به من ناحية أخرى. فليس معنى العزلة الانعزالية التامة عن الآخر، وإنما على العكس، لا توجد عزلة إلا وكان وجود الآخر مرادفًا لها، وربما كان برديائف يشعر بالعزلة، بشكل متزايد، وسط الحشود.

كما تتناول الدراسة جدل التغلب على العزلة، وهل هناك تناقض في موقف برديائف أم أنه جدل العزلة من ناحية، و التواصل من ناحية أخرى. والتواصل هنا معناه التواصل مع الله، في محاولة للتغلب على العزلة، وتحرير الأنا من انعزالها، وتحقيق الاتصال الروحي ومعرفة سر الوجود والله وحده القادر على قهر العزلة. وهنا توضح الدراسة كيف أن العزلة والاتصال الروحي في استقطابهما وتداخلهما أساسيان للحياة، وذلك في ظل الحرية الإبداعية والغنوصية والتصوف.

منهج البحث: المنهج التحليلي.

تساؤلات البحث:

١-ماذا يعني برديائف بالعزلة؟

٢-كيف تساهم العزلة في اكتشاف العالم الحقيقي؟

٣-كيف رفض برديائف السلطة؟ ولماذا؟

٤-كيف جمع برديائف بين العزلة والاتصال الروحي؟

٥-كيف تكون العزلة إيجابية؟

٦-ما علاقة العزلة بالحرية الإبداعية؟

٧-ما علاقة العزلة بالغنوصية والتصوف والثورة الروحية.

محتويات البحث:

يحتوي البحث على مقدمة وأربعة عناصر، وخاتمة تتضمن أهم نتائج البحث، بالإضافة إلى قائمة المصادر والمراجع. وهذا وقد جاءت عناصر البحث على النحو التالي:

أولاً: فلسفة برديائف: (النزعة الروحية – الرؤية الحدسية – الحرية الإبداعية – التصوف – الإنسان).

ثانيًا: العزلة والغربة الميتافيزيقية.

ثالثًا: الحرية الإبداعية.

رابعًا: الحرية الإبداعية والغنوصية .. والعزلة.

أولاً- فلسفة برديائف: (النزعة الروحية – الرؤية الحدسية – الحرية الإبداعية – التصوف – الإنسان):

تقوم فلسفة برديائف(*) على تجربته الروحية، ورؤيته الحدسية، ونزعته الصوفية التي لا تعوّل كثيرًا على التحليل المنطقي، واختيار المفاهيم العقلية، فهي صدى لحياته الداخلية ومعتقداته اليقينية، وقد اجتذب تفكيره الأنظار، وذاعت شهرته، ونقلت مؤلفاته الكثيرة إلى لغات عدة، وتناولها الباحثون بالعناية والدرس[1].

يقول برديائف: "إن الإنسان هو الفكرة المسيطرة على حياتي .. صورة الإنسان وحريته الخلاقة، ومصيره المبدع، بيد أن التعرض للإنسان معناه التعرض لله، وهذه في نظري هي المسألة الأساسية، فإن مشكلة مركزية الإنسان ونشاطه الخلاق لم تلق عناية جدية من البحث على يد آباء الكنيسة والفلسفة المدرسية. والنزعة الإنسانية في عصر النهضة هي التي قامت بالكشوف الأولى الهامة في هذا الاتجاه"[2].

وفي كتابه "الحلم والواقع" يقول برديائف: "يدور الكتاب حول ذاتي، وبحاجة المرء لفهم نفسه، والكشف عن صورته الخاصة، ومصيره النهائي"[3].

فالإنسان، وإن كانت تتحكم فيه البيئة إلى حد محدود، فإنه من ناحية أخرى يستطيع أن يعيد خلق البيئة على الصورة التي يريدها، ومعرفة الفرق الجوهري بين عالم الروح وعالم الحرية والنشاط الخالق للشخصية الإنسانية، وبين عالم الطبيعة الذي تتجلى فيه السيطرة الآلية والقوانين الجبرية. كما أن إدراك الإنسان الحدسي للقيم وشعوره بالتزام التعبير عن الحب والحرية والخلق (الإبداع)، والحق والجمال مصدرها –في رأي برديائف– أن الإنسان

(*) نيقولاي ألكسندروفتش برديائف Nicolas Berdiaev (1874 – 1948)، مفكر روسي ممتاز، وكاتب شائق، ومجاهد في سبيل عقيدته لا يقبل المساومة، ولد برديائف سنة 1874 في مدينة كييف (أول مركز للديانة المسيحية في روسيا) وكانت أسرته من الأسر الروسية، وتلقى تعليمه في إحدى المدارس الحربية، وفي سنة 1894، وهو طالب في الجامعة تحول إلى الماركسية، وتأثر بتعاليمها ومنهجها في البحث والنظر. أخذ يتحول شيئًا فشيئًا عن الماركسية إلى المثالية، ولكنه لم يقطع صلته بالمفكرين الثائرين على النظم التي كانت سائدة في روسيا. عُين أستاذًا للفلسفة في جامعة موسكو، رغم إعلانه الخروج على الفلسفة الماركسية، وقد أعقب اعتقاله في سنة 1922 نفيه من روسيا، ولما نُفي إلى فولجودا كان أكثر المنفيين بها من الديمقراطيين الاشتراكيين، ومن الاشتراكيين الثائرين، وقد تحدث عنهم في كتابه "الحلم والواقع" قائلاً: "كنت أحبهم، فقد كانوا قومًا ظرفاء مخلصين لفكرتهم ومثلهم العليا، ولكنني أجد الجو في صحبتهم خانقًا، مملاً يضيق على الإنسان، ويكاد يخمد أنفاسه».

انظر: نيقولاي برديائف (1960م): العزلة والمجتمع، ترجمة: فؤاد كامل عبد العزيز، مراجعة: علي أدهم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ، ص ص (هـ، و، ز).

ملحوظة: إن كتاب العزلة والمجتمع "لبرديائف"، كان عنوانه في الأصل الروسي هو "الأنا وعالم الموضوعات"، وعنوان الترجمة الفرنسية "خمسة تأملات عن الوجود"، ولكن الترجمة الإنجليزية "العزلة والمجتمع" أكثر دلالة على مضمون الكتاب.

(1) نيقولاي برديائف: العزلة والمجتمع، ص (ه).

(2) نيقولاي برديائف: العزلة والمجتمع، ص 253.

(3) نيقولاي برديائف(1984م): الحلم والواقع، ترجمة: فؤاد كامل، مراجعة: علي أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ، ص 8.

قد صيغ على مثال الله، والإنسان في جوهره مبدع، وقد يأخذ خلقه (إبداعه) صورة خلق قيم جديدة، ولكن صورة القيم منبثقة من طبيعة الله، والقيم من ثم متسامية على الإنسان، وأسمى نزوع للإنسان متجه نحو الله[4].

إن الإنسان أكثر غموضًا من العالم. والإنسان هو عالم مصغر، لكن شخصيته لا تتحقق ولا تتجسد إلا بقدر ما يحتوي على شيء فردي وخاص. هكذا يرى برديائف، وعلى المسيحيين أن يطمحوا للمدينة الأبدية[5].

يعد برديائف من بين الفلاسفة الذين يُصنفون على أنهم وجوديون دينيون، فلسفته أكثر شمولاً وأصالة. وقد أتاحت له طفولته المبكرة فرصة التعرف على الأرثوذكسية الروسية المتدينة، والكاثوليكية الروحانية التي ورثها عن والدته الفرنسية ونصف البولندية، ألينا سيرجيفنا كيداشيف Alina Sergeevna Kidasher[6].

تنظر الفلسفة التي يطلقون عليها اسم "الوجودية" يراها برديائف باعتبارها معرفة بالواقع عن طريق الوجود الإنساني ومظاهره العينية، وفي وقت لاحق يرى برديائف نفسه على أنه وجودي، بل وأكثر وجودية من الجميع. فعندما يعرف الإنسان نفسه تتكشف له أسرار كان يجهلها خلال معرفته بالآخرين. ولقد خبرت العالم الذي يحيط بي والعمليات التاريخية وأحداث عصري جميعها باعتبارها جزءًا من نفسي وترجمة لحياتي الروحية. هكذا يعبر برديائف عن نفسه[7].

يعتقد برديائف أن الكتابة تعبير عن تجربة المرء الملموسة، بما في ذلك مواقفه وقيمه وحدسه. ويرى أن التكامل الحقيقي للفكر هو وحدة وجودية وليست منطقية. يهتم برديائف أكثر بإقناع قارئه بآراء معينة من اهتماماته بجعله يشارك طريقة رؤيته للأشياء، وبتأكيده على المنهج بدلاً من النتيجة، والتفلسف بدلاً من العقيدة الفلسفية. كما يصر برديائف على أن أعماله مليئة بالمتناقضات، ويكره أن تؤخذ فلسفته، التي يعتبرها ديناميكية وإبداعية، على أنها مجرد مجموعة من العقائد، لدرجة أنه يبالغ بشكل غير ملائم في تناقضه المزعوم[8].

---

[4] نيقولاي برديائف: العزلة والمجتمع، ص (ي).

[5] Nicolas Berdiaev (1958): Essai D'Autobiographie, Spirituelle, Buchet-Chestel, Paris, p. 1.

[6] James Wayne Dye (2025): Nikolai Berdyaev and His Idea on the fundamental Nature of All Entities, Northern Illions University, Dekallb, 111, U.S.A., p. 109.

[7] نيقولاي برديائف: الحلم والواقع، ص 9.

[8] James Wayne Dye: Nikolai Berdyaev and His Idea on the fundamental Nature of All Entities, pp. 112, 113.

لا تُقرأ أعمال برديائف بسهولة دائمًا، ليس بسبب حججها شديدة التعقيد، أو مفرداتها المتخصصة بشكل مفرط، ولكن بسبب ندرة الحجج المتماسكة والتحليل المنهجي والعرض المنضبط. حيث يعترف برديائف نفسه بأنه مفكر غير منهجي، وتعكس كتاباته هذه الحقيقة. كتاباته ليست متقطعة لدرجة وصفها بأنها مقتضبة، بل يمكن وصفها بحق بأنها "متسلسلة"[9].

كان برديائف مدفوعًا برغبة دائمة ومتحمسة في الكتابة الإبداعية والتي تسعى لمعرفة الذات. كما كان يسعى برديائف وراء الحقيقة والحرية. وقد ألف برديائف العديد من الكتب مثل "في العبودية والحرية الإنسانية" و"معرفة الذات"، والذي نشر بعد وفاته، تجربة السيرة الذاتية الفلسفية (1949). ويمكننا القول إن السنوات التي قضاها برديائف في كلامار كانت من أكثر السنوات خصوبة. فقد عاش هناك حياة حافلة بالأحداث كفيلسوف وكاتب ورجل عائلة. وقد حظيت أنشطته الشاملة بدعم عائلته وأصدقائه ومعجبيه. فقد كانت أعماله معروفة بالفعل خلال حياته، وبدأت تنتشر على نطاق أوسع بلغات مختلفة وتوزع في المزيد من البلدان بعد وفاته[10].

وعند برديائف أن روح كل إنسان لها وجودها المستقل، ولها حقوقها وإمكانياتها التي ليست لأي شيء سيطرة عليها، وهو لذلك يرفض الفلسفات التي تنكر حق الروح في الاستقلال والحرية، والتي تنتقص قوى الإنسان وإمكانياته، أو التي تعتبر الإنسان مجرد آلة للروح العامة الشاملة، كما كان يرى هيجل George Wilhelm Friedrich Hegel (1770 – 1831) وشيلنج Friedrich Wilhelm Joseph Schelling (1775 – 1854). ويقبل برديائف فكرة أن لكل إنسان رسالة، وأن هذه الرسالة تتضمن تحقيق شخصيته تحقيقًا كاملاً[11].

ومن عيوب الفلسفة المادية في نظر برديائف، أنها تضعف في الإنسان الشعور برسالته. فالإنسان مدعو إلى الحرية، والتي اعتبرها برديائف حقًا من حقوق الإنسان. وقد اتضح ذلك في معارضته للماركسية. ولكن الحرية التزام، ولا يستطيع الإنسان أن يحقق رسالته إلا في ظل الحرية. فلكل إنسان نصيب من القدرة على إصدار الأحكام المستقلة، وإنماء شخصيته، وممارسة قدرته على الإبداع والخلق والاستمتاع بالاستقلال. كل ذلك يتوقف

---

[9] James Wayne Dye: Nikolai Berdyaev and His Idea on the fundamental Nature of All Entities, p. 112.

[10] Panteleimon Pavlincicuc: The House of Berdyaev. A place of convergence between culture, religious practices and philosophical Ideas, pp. 1, 2, 8, 10.

[11] نيقولاي برديائف: العزلة والمجتمع، ص ص (ي، ك).

على حريته. فالرجل الذي يرفض هبة الحرية ينكر طبيعته الحقة، وينزل عن حقوقه الروحية[12].

والناس يطلبون الحرية، وفيهم الاستعداد لها، ولكنهم في الوقت نفسه يرهبونها، وذلك لأنهم يخشون التبعة. وتاريخ البشر إلى حد كبير سجل محاولات الإنسان التفريط في حريته. وقد تناول بردیائف هذا الموضوع في كتابه عن "العبودية والحرية". وعنده أن الإنسان يلجأ إلى طرق كثيرة لاستعباد نفسه، ويندر أن يسلم بعبوديته، وتحقيق إمكانيات الإنسان متوقف على حريته، ولكن تحقيق الحرية يستلزم محاولة بطولية وجهدًا ومعركة وقبولاً لمأساة الحياة وصبرًا على آلامها، وهو يحتقر الآداب القائمة على طلب المتعة ونشدان اللذة، ويرى أن معناه قبول لون من شر أنواع العبودية، وليس في استطاعة الإنسان أن يحقق وجوده الكامل، ويمكن لقواه الخالقة وهو مستعبد لإشباع شهواته منهمك في إرضاء حبه للراحة والنجاح والمال والنفوذ، بينما الحرية عند بردیائف معناها الخلق، وهي التي تمكن الإنسان من توجيه جهوده إلى قنوات تعود بالخير على الإنسانية[13].

ويمكن أن نلمح خلال ما تقدم أن بردیائف يجعل الشخصية الحرة الخلاقة محور مذهبه ومناط تفكيره، وليست الشخصية عنده وسيلة، وأن الغاية هي النمو الحر الكامل للشخصية، وعنده أن الوجود الحق هو وجود الشخصية الحرة، وإذا كان أساس المعرفة الفلسفية الحقة تجربة الفيلسوف نفسه، فإن تجربة بردیائف الشخصية هي باعث فلسفته ونقطة ابتدائها وهدفها، فقد رفض بردیائف النظام الذي فرض عليه في روسيا، وأبى المساومة في قبوله، على أن الشخصية عنده ليست شيئًا جاهزًا قد فرغ منه وتم تكوينه، وإنما هي مثل أعلى يجاهد الإنسان طوال حياته في سبيل تحقيقه، والشخصية كفاح مستمر وجهاد دائم وانتصار متواصل على الاستعباد[14].

وليس في استطاعة الإنسان أن يحقق إمكانياته إلا بالجهاد واحتمال الآلام، والرجل الذي يخضع للقوى الخارجية أو ينقاد لشهوتها، يقف نموه، ويتعطل تقدمه، ويفقد حريته، ولا تنمو الشخصية إلا عن طريق شعور الإنسان برسالته وحبه للبشر، وبذله الجهد في مساعدتهم وإثراء الحياة الإنسانية. على أن تحقيق الشخصية شيء نادر، والشخصية في معظم الناس

---

[12] نيقولاي بردیائف: العزلة والمجتمع، ص (ك).

[13] المصدر نفسه، ص ص (ك، ل).

[14] نيقولاي بردیائف: العزلة والمجتمع، ص (ق).

تظل قوة كامنة قد يقضي عليها الانحلال والإذعان للمجتمع، أي أن نمو الشخصية كاملاً يستلزم عنصرًا من عناصر التمسك والسيطرة على الدوافع والأهواء[15].

يرى برديائف أن هناك دافعين أوليين في حياة الإنسان الباطنة، البحث عن المعنى، والبحث عن الأبدي. وقد سبق بحثه عن المعنى بحثه عن الله، وكان بحثه الأبدي سابق على بحثه عن الخلاص. فقد هزته هذه الفكرة في أعماق نفسه. فحتى ولو لم يكن هناك مثل هذا الشيء الذي أسميه معنى الحياة، فإن مجرد البحث عن المعنى كفيل بأن يجعل الحياة ذات دلالة ومعنى، ولهذا البحث –عن معنى الحياة– أراد برديائف متلهفًا أن يكرس حياته[16].

وهذا التبصر يمثل ثورة باطنة حقيقية غيرت نظرة برديائف كلها للحياة. وأعقب ذلك عهد من الرؤية العظيمة والإلهام. فقد كان ذلك ضربًا من الانقلاب، ولعله أقوى انقلاب، أو ربما كان الانقلاب الوحيد في حياة برديائف .. كان انقلابًا للبحث عن الحق، وهو بحث يقتضي هو نفسه الإيمان بوجود الحق.. بحث عن الحق والمعنى يصطرع مع الواقع المبتذل الخالي من المعنى. بيد أن هذا التغيير لم يكن دليلاً على انقلاب نحو أي مذهب ديني، سواء أكان أرثوذكسيًا أم حتى مسيحيًا بوجه عام .. لكنه كان قبل أي شيء آخر عودة إلى التوجيه نحو الروح، وهذه النزعة الروحية Spiritualism أصبحت الأساس والإطار لكل موقف برديائف الفلسفي، وربما لوجوده نفسه[17].

تسعى فلسفة برديائف نحو معرفة الذات، لقد كان يبحث عن الحقيقة، بيد أن حياته لم تكن خاضعة للحكمة والتعقل، بل إن التوكيد الرئيس في هذه الترجمة الذاتية يلح على معرفته بذاته، وعلى الطريقة التي توصل بها برديائف لمعرفة عقله ومطلبه الروحي وفهمهما. إنه يتطلع قدمًا إلى المستقبل، وربما كان الزمان هو المشكلة الأساسية للفلسفة، وخاصة فلسفة الوجود[18].

ثانياً- العزلة والغربة الميتافيزيقية:

لم يكل برديائف من تكرار أن فلسفته تُعني قبل كل شيء بالإنسان ووضعه في العالم. فكل شيء ينبع منه، وإليه يعود. وبالنظر إلى مسار حياته كتب برديائف: "لم أعتنق المسيحية لأنني توقفت عن الإيمان بالإنسان، وكرامته، ورسالته السامية، وحريته الإبداعية، بل لأنني

---

[15] المصدر نفسه، ص ص (ق، ر).

[16] نيقولاي برديائف: الحلم والواقع، ص ص 87، 88.

[17] نيقولاي برديائف: الحلم والواقع، ص 88.

[18] المصدر نفسه، ص ص 10 – 12.

بحثت عن أساس أعمق وأصدق لهذا الإيمان". لقد كان بردیائف دائمًا على دراية بالانحراف عـن غالبيـة النـاس الـذين اعتنقـوا المسـيحية، سـواء كـانوا أرثوذكسـيين أو كاثوليـك أو بروتستانت. فقد شعر بردیائف أن تركيزه الشديد على الإنسان جعله مختلفًا. ويمكن العثور على عبارة تشير إلى غربة ميتافيزيقية: لطالما شعرت بالغربة، وهذا الشعور، الذي لطالما رافقني منذ طفولتي، يزداد باستمرار. إنه شعور بنوع من العالم الآخر. كما لو أنني لا أنتمي إلى هذا العالم، وفي الوقت نفسه أنغمس أكثر من غيري من الفلاسفة في مشاكله، ولكن كما لو كنت خارجه، أراقب وأتفحص، دون أن أنتقل إلى العالم[19].

هذا الشعور بانعدام القدرة على الاندماج مع العالم يشكل الأساس الأعمق لمشاعر بردیائف تجاه العالم. فهو لم يشعر قط بأنه جزء من العالم الموضوعي، أو أنه يتمسك بأي مكان فيه. لقد اختبر "ذاته" خارج العالم الموضوعي الذي واجهه، فقط على هامشه يقيم بردیائف أي اتصال مع هذا العالم. إنه شعور بالغربة، أو بالأحرى بالعزلة. ويعرب بردیائف عن رفضه الجوهري للعالم. وهو يدرك ذاته لنقطة تقاطع بين عالمين. فبينما هذا العالم، عالم معيشتي الفعلية، معروف لي بأنه زائف وغير حقيقي، هناك عالم آخر، أكثر أصالة وأكثر صدقًا، تنتمي إليه أعماق ذاته[20].

لا أستطيع تذكر صرختي الأولى، أي بردیائف، عند مواجهة عالم لم يكن مألوفًا لي، لكنني أعلم يقينًا أنني منذ البداية كنت مدركًا لسقوطي في عالم غريب. شعرت بهذا الأمر في اليوم الأول من حياتي الواعية كما أشعر به في الوقت الحاضر (حوالي عام 1940). لطالما كنت مجرد عابر سبيل، مما جعلني أتمرد على العالم. فأنا لست مجرد شخص متألم وحيد، غريب عن العالم، يملؤه الحزن على المخلوق المتألم والمنهار عاطفيًا. أنا أيضًا شخص متمرد، متحدٍ، معارض بشدة، ومواجه لصراع الأفكار. ويذكر بردیائف، لقد حاربت العالم ليس كشخص يريد قهر نفسه وإخضاعها، بل كشخص غريب عن هذا العالم، يريد تحرير نفسه من سلطته[21].

سبق القول بأن العزلة هي نوع من الغربة الميتافيزيقية، كما أن لها معاني عدة عند بريائف إذ يمكن وصف العزلة بأنها شعور بعدم الراحة أو الألم، يُنبئنا بعدم إشباع حاجتنا للتواصل مع الآخرين. إن العزلة تجربة إنسانية عالمية وصفت في نصوص العهد القديم والأدب

---

[19] Fabian Linda (2010): The spiritual of Revolt, Nikolai Berdiave 's Existential Gnosticism, Acta universitatis Stockholmists, pp. 147,168.

[20] Ibid, pp. 168, 169.

[21] Ibid, pp. 169, 170.

المعاصر. ولكن قد تكون هناك جوانب تشجع على العزلة، وربما تكون جانبًا ثابتًا من الوجود الإنساني يجلب جانبًا إيجابيًا معه[22]. إذ تساعدنا العزلة على التأمل الفلسفي، وكما يقول ديكارت: "لقد منحتني العزلة الاجتماعية الوقت الكافي لممارسة الفلسفة". وأحيانًا تقودنا العزلة إلى الله، ومن خلاله، نخرج من العزلة ونعود إلى العالم. ربما تكون عودتنا أقل انتصارًا، فملامح العالم تتسلل ببطء في قلق وغضب وارتباك[23].

لقد كانت العزلة أسلوب حياة يتجاوز اضطراب المجتمع، والتناقضات والمتاعب، والعداء، والمادية، والسياسة، والنزاع الاجتماعي في ظل النظريات والاتجاهات السائدة المختلفة، والتفاوتات الاقتصادية، والضيق. لقد كانت العزلة خيار العديد من المفكرين الذين رغبوا في عيش حياة وجودية أصيلة في سلام، وتأمل روحي وفكري. ففي العزلة الهادئة، في الصمت، في الرياضة الروحية، في البساطة والتواضع الهادئين، يمكن للإنسان أن يفهم محبة الله، والتضحية، وإرادة الله المقدسة النافعة، ويشعر بالابتهاج الفريد لخوض تجربة حضوره القلبية، فتغمر محبة الله كيانه، فيتجسد كيان الإنسان من تلك المحبة والنور الإلهي[24].

إن كلاً منا يدخل الوجود وحيدًا، ويخرج منه وحيدًا. وكل فرد منذ فجر الوعي خلق ذاتًا متعالية، من حقها السماح للوعي بالانطواء على نفسه، وتمييز الذات عن بقية العالم. بعد ذلك يبدأ الفرد، الذي أصبح واعيًا بذاته، في تكوين ذوات أخرى، ولكنه لا يمكنه أبدًا مشاركة وعيه بالكامل مع الآخرين. ولكن مفاهيم الحياة الآخرة تتضمن التواجد مع الله والآخرين[25].

يكافح الإنسان باستمرار للهروب من سجن وحدته المرعبة. فالإنسان معزول ميتافيزيقيًا، وسبب عزلته نظرية جوهرية بناءة للوعي. وربما تعني العزلة الانفصال مما يجعله يعاني الوحدة والاغتراب، ولكن العزلة تنطوي على رغبة قوية في تجنبها. ويرى برديائف أن البشر يعيشون في هذا الكون الفسيح، من منظور أفق لا حدود له، وهذا لا يلهمهم إلا شعورًا متزايدًا بالعزلة، وهذا لا يغني عن وجود الآخر "الأنت"، ولكن يفترض برديائف أن كل "أنا"

---

[22] Lars Fr. H. Sevendsen (2015): A philosophy of loneliness, Ensomhetnes Filosofi, universites Forlagel, p. 1.

[23] Anil Gones (2020): The Privelege of boredom: How Philosophy Can happen in Isolation, Trinity College, Oxford, March, pp. 3, 4.

[24] Baloyannis J. Stavros (2015): The philosophy of solitude, Aristotolle University of Saloniki, p. 21.

[25] Benlazare Mijuskovic (2012): Loneliness in Philosophy, Psychology, and literature. I universe, Inc, Bloomington, p. 6.

فريد ومتميز، كل "أنا" كيان، عالم في ذاته، حتى لو افترض "أنا" أخرى، فهذا ليس معناه السعي إلى التماهي معها[26].

لقد امتد شعور برديائف المعذب بالغربة إلى موقفه من جماعات الناس كلها، ومن جميع الحركات والأحزاب والطبقات، فلم يكن يرضَ مطلقًا بأن يندرج في فئة، كما لا يستطيع أن يتصور نفسه جزءًا من وضع إنساني "عام" أو "عادي"، وكان هذا الشعور بالغربة –الذي سبب له أحيانًا عذابًا حقيقيًا– ينشأ أحيانًا من أي تجمع للناس، أو من أية حادثة يومية من حوادث الحياة[27].

وفي ذلك يعبر برديائف: "بل إنني أضم داخل نفسي كثيرًا من الأشياء الغريبة عليها.. كنت غائبًا في أثناء حضوري حضورًا إيجابيًا في الحياة .. ولا أستطيع أن أقول – أيًا كان الأمر– إن إحساس الاعتزال عندي كان علامة على عدم الاكتراث .. ذلك أنني أبعد ما أكون عن عدم الاكتراث هذا، بل كنت أجد نفسي ملتزمًا إيجابيًا عميقًا في الحياة، غير أن هذا كان يمتزج في صورة مقارنة، يميل لما يمكن أن يسمى بالموقف اللااجتماعي non-social attitude"[28].

ومع ذلك كله يقر برديائف بأنه اجتماعي، وقد أنفق حياته متحدثًا مع غيره من الناس، ومستمتعًا بهذا الحديث، كما اشترك اشتراكًا إيجابيًا في الشؤون الاجتماعية والحركات السياسية. فلم يكن فكره مناجاة متوحدة، بل كان منخرطًا في الحوار والاحتكاك بفكر الآخرين كأثر منعش مقوٍ لتفكيره الخاص[29]. ولذا فإن هناك متناقضات في فكر برديائف، ولكنها متناقضات إيجابية، تظهر من حين لآخر، ولكن لتثبت موقفه الإبداعي في وجوده وحريته، ومواقفه في رفض السلطة مهما كانت سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية في ممارسة ضغطها على الفرد.

لقد كانت حياة برديائف خاضعة للضغط المستمر الذي يفرضه هذا السيل من الأحداث. فقد دخل السجن أربع مرات: مرتين في أثناء الحكم الروسي القديم، ومرتين خلال الحكم الجديد، ونفي إلى شمال روسيا، وحوكم وهُدد بالنفي المؤبد إلى سيبيريا، وأُبعد عن وطنه، ولكنه يعترف بأنه لم يشتغل قط اشتغالاً إيجابيًا بالنشاط السياسي، ومع أنه ارتبط ارتباطًا عميقًا بكثير من الأشياء، إلا أنه لم ينتمِ كلية إلى شيء منها بالذات، ولم يسلم نفسه مطلقًا

---

[26] Ibid, pp. 6-9, xxix, 66, 77.

[27] نيقولاي برديائف: الحلم والواقع، ص 45.

[28] نيقولاي برديائف: الحلم والواقع، ص 45.

[29] المصدر نفسه، ص ص 45، 46.

لأي شيء، اللهم إلا مهنته الوجودية الخالقة، حيث الاهتمام بالذات. ولما كان برديائف أبعد ما يكون عن عدم المبالاة بالمسائل الاجتماعية طيلة حياته، فقد عانى حقًا من وطأتها معاناة عميقة، ولم يعرف ضميره الاجتماعي مطلقًا معنى الاستقرار[30].

وكما يعبر برديائف عن نفسه بمعنى أعمق "كنت شخصًا لا اجتماعيًا ولم تستطع الحركات الاجتماعية أن تدعي ولائي لها قلبًا وقالبًا. فلقد كنت دائمًا روحيًا، وصاحب نزعة فردية".

إن هذه الدراسة قد تساعد أيضًا على إثارة وحل عدد من المشكلات التي تتصل بالإنسان ومصيره، كما قد تسهم في العمل على فهم عصرنا، وهنا يشعر برديائف بضرورة تفسير المتناقضات والمفارقات الظاهرة التي نسبت إلى وجهة نظر برديائف الفلسفية[31].

فمنذ طفولته كان يشعر برديائف بأنه يسكن عالمًا يختلف عن العالم الذي يحيط به، ويتظاهر فحسب بانتمائه إلى عالم بيئته، كما كان يتخذ موقف الدفاع ضد العالم، ويحاذر من كل ما يمكن أن ينتهك حريته. فهو لم يفتقر قط إلى الإحساس بالواقع، واقع العالم المحزون الذي يحيط به. فقد كانت تجربته معاناة للطابع الغريب في العالم الموضوعي أكثر من أن تكون معاناة للدوافع. ولكن برديائف لم يعش قط في مجال وهمي، بل كانت استجابته للعالم من حوله استجابة متيقظة واقعية إلى أقصى حد. ومع ذلك كان لديه ذلك الإحساس بابتعاد هذا العالم عنه، ولم يستطع برديائف الاندماج فيه مطلقًا. فقد كان برديائف يشعر بغربة الإنسان إزاء العالم[32].

ولكن بينما يكون من الممكن تحديد تغيرات "الأنا" موضوعيًا، فإن ماهيتها لا يمكن أن تتحدد على هذا النحو، فهي تحدد نفسها بنفسها، وهي تحدد نفسها من الداخل حينما تتجاوب تجاوبًا فعالاً مع كل المؤثرات الخارجية. وكل أنا فريدة متميزة، وكل أنا حقيقية قائمة بذاتها، عالم قائم بذاته، يضع وجود "الأنات" الأخرى دون أي محاولة لأن يجعل من نفسه شيئًا واحدًا معها، والأنا التي يعنيها برديائف هي "الأنا" غير الموضوعية التي تتجاوز المجتمع. والوعي الذاتي يقتضي الشعور بالآخرين، فهو اجتماعي في أعماق طبيعته. وما دامت حياة الإنسان تعبيرًا عن الأنا، فإنها تعترض وجود الآخرين، ووجود العالم، ووجود الله[33].

---

[30] المصدر نفسه، ص ص 9، 10.

[31] نيقولاي برديائف: الحلم والواقع، ص 10.

[32] المصدر نفسه، ص ص 44، 45.

[33] نيقولاي برديائف: العزلة والمجتمع، ص ص 112، 113.

وانعزال الذات انعزالاً مطلقًا ورفضها الاتصال بأي شيء خارجها أو "بالأنت" عبارة عن انتحار. ووجود الأنا يصبح مهددًا كلما أنكر الوجود الكامن فيها لذات أخرى أو للأنت. فالأنا تصبح شاعرة بنفسها نتيجة لنشاطها الخاص، ولكن هذا النشاط يقوم على أساس وجود شخص آخر، كما يقوم على "الأنا" الفاعلة ولكننا نهتم هنا أولاً بوجود ذات أخرى .. بوجود الـ "أنت". فـ "الأنا" جسم وروح معًا، والجسم يشارك في مجال الوجود الخارجي والداخلي على السواء، كما أن العالم الداخلي لا يتوقف على تحققه الخارجي، فهو قائم بذاته بوصفه كشفًا عن حالة أخرى من حالات الوجود[34].

ولكن تبقى الحقيقة الأساسية صحيحة ألا وهي أن أي اتصال موضوعي لا يمكن أن يساعد "الأنا" أثناء مسيرها في طريق الحرية والاتصال الروحي. وفي أعماق عزلته ووجوده التنسكي ينمو في الإنسان الشعور الحاد بشخصيته وأصالته وتفرده، وكما يرى برديائف، أن للإنسان حقًا مقدسًا في العزلة، وفي حياة خاصة. ومن الخطأ اعتبار العزلة نزعة انعزالية، وإنما على العكس من ذلك لا توجد عزلة إلا وكان وجود الذات الأخرى والأنا الأخرى مرادفًا للعالم المجرد الموضوعي. فالأنا لا تعاني عزلتها داخل نفسها، مثلما تعانيها وسط الآخرين، وسط عالم مجرد[35].

والعزلة المطلقة لا يمكن تصورها، بل من الضروري أن تكون مقترنة دائمًا بوجود الغير و"الذات الأخرى"، والعزلة المطلقة مرادفة للجحيم والعدم. وحينما تحدث تلك العزلة، فإن درجة الانفصال الحادثة لا تكون عن الله والعالم الإلهي، وإنما عن "الروتين" الاجتماعي اليومي للعالم، فيكون هذا الانفصال (أو العزلة) مرحلة من مراحل نمو الإنسان الروحي[36].

يمكن الشعور بالعزلة وسط الحشود. فقد بدا أسلوب برديائف في محاولاته لتبسيط الجوانب الأساسية للوعي الذاتي. إن طبيعة وعينا ذاتها تنتمي إلى ذاتنا الداخلية، فالوعي هو الذي يمنح العالم وحدة مفهومه. فلنتمسك بإرثنا من العزلة الكونية. إن طبيعة الكون الواسع لا تكمن في ما يُثقل كاهلنا، بل فينا. إنها في الصمت السحري الذي تغزوه أفكار الحشود[37].

إن عزلة الذات تُكسبنا عادة التأمل في لحظة اتساع عالم الكواكب، وتضفي جمالاً وكرامة وأهمية سامية على كل ظاهرة من ظواهر الحياة، وهي تلامس بشدة الشروط الأساسية

---

[34] نيقولاي برديائف: العزلة والمجتمع، ص 113.

[35] المصدر نفسه، ص ص 116، 117.

[36] المصدر نفسه، ص 117.

[37] John Cowper Powys (1933): A philosophy of solitude, Simon and Schuster, New York, pp. 5, 6, 41, 42.

لوجودنا على هذه الأرض. وفي العزلة فقط يمكن أن نختبر السعادة التي تشبه بهجة الأطفال. بل إن تنمية العزلة الداخلية، وسط حيوات مزدحمة، هي ما يجعل المجتمع محتملاً. وإن إرادة الذات المنعزلة تسكن بعناد في روحها، فيبقى انفصالها صامدًا وذا بصيرة[38].

ثمة نمطان من الناس يختلفان فيما بينهما اختلافًا أساسيًا: هؤلاء الذين تكون علاقتهم مع العالم مريحة منسجمة، وأولئك الذين على خلاف دائم معه. أما برديائف فهو من النمط الثاني. ولقد سبب له عدم الانسجام بين "ذاته" وما ليس بذاته، وعدم التكيف العميق الجذور الذي تميز به، سبب له دائمًا الألم وعدم الاستقرار. وقد نشأ عن إدراك برديائف للطابع المنفصل للعالم عجزه عن اكتساب مكان وطيد فيه، فقد كان يشعر بأنه مكروه من "الرأي العام" ومن المجتمع، وكان الماركسيون يمقتونه، وكذلك دوائر واسعة من المثقفين الروس، والسياسيين، وممثلي العلم والفلسفة الرسمية والأكاديمية، والأوساط الأدبية والكهنوتية[39].

لقد كان برديائف يشعر بالوحدة في أشد حالاتها عندما يكون بصحبة الآخرين، والشعور بالوحدة بين الناس هي الوحدة وقد اشتدت وزادت حدتها. ويقال إن الأشخاص المتوحدين يتميزون بإطار عقلي تأملي يغلب عليه الإحجام عن الفعل، ولكنني، أي برديائف، كنت وحيدًا نشطًا في الوقت نفسه، ولقد كنت أشعر دائمًا، وسأظل أشعر شعورًا قويًا إزاء المسائل الاجتماعية، ومع ذلك فإن كل نظام أو حركة اجتماعية غريبة عليّ. وكنت في شبابي أنتمي إلى عدد من الجماعات الماركسية التي بذلت فيها نشاطًا كبيرًا، فكنت أخطب في الاجتماعات وأجادل، وأروج لمبادئها، بيد أن شعوري بالبعد ومعرفتي بأنني قادم من عالم آخر سأعود إليه لم يفارقاني على الإطلاق[40].

وهكذا لم يستطع برديائف قط أن يجسد في الخارج ما يعتمل في نفسه، ولم تتوج محاولاته لتشكيل البيئة المحيطة به كما يهوى قلبه – بالنجاح العظيم– وليس ثمة شيء مشترك بينه وبين أعمدة المجتمع، أولئك الأشخاص الموحدي الأكناف الذين يحرسون مبادئ الحياة والمدنية سواء أكانت هذه المبادئ محافظة أم حرة، أم اشتراكية[41].

---

[38] Ibid, pp. 49, 50.

[39] نيقولاي برديائف: الحلم والواقع، ص ص 46، 47.

[40] نيقولاي برديائف: الحلم والواقع، ص 46.

[41] المصدر نفسه، ص 46.

يجب أن نتذكر دائمًا أن عزلة الذات، في حياة متعمدة الوحدة، لا تعني بالضرورة العيش في عزلة حقيقية. إنها تعني اختيار حياة تأملية على أي حياة أخرى، حيث يمكن للشخص أن يكون جنديًا، أو بحارًا، أو معلمًا، أو محرضًا ثوريًا، أو مزارعًا، أو عامل مصنع، ويمكنه أن يكون عاملاً، ويعيش في عزلة عميقة. وهنا يمكن القول إن الحياة التأملية ممكنة في أي عمل، حيث تصبح العزلة تأملاً للذات[42].

تتحرك الأنا المنعزلة، التي خلقت نفسها في عزلتها في أرجاء العالم، تنتظر الروح، وتتواصل مع العناصر، متزنة وصابرة، إنها تستمع إلى صمت الكون. كما أن أهم إنجاز في فن الحياة المنعزلة هو امتلاك الأفكار الصحيحة[43].

حينما تتجرد "الأنا" من العالم المألوف للحياة اليومية، تشتاق إلى وجود أكثر عمقًا وأشد أصالة، وتتردد بين عزلتها وبين حياة المجتمع اليومية. والعزلة ظاهرة اجتماعية بمعنى من المعاني لأنها تفترض الشعور بالذات الأخرى. وإن أكثر أشكال العزلة تطرفًا وكآبة هو ما تعانيه وسط المجتمع، في العالم الموضوعي. وهذه العزلة لا يمكن التغلب عليها إلا في المستقبل الوجودي، بالتقاء الأنا مع أنا أخرى .. مع "أنت" أو مع الذات[44].

ينبغي على الأنا أن تجد مخرجًا من العالم الموضوعي الذي لا يوجد فيه أي اتصال روحي، وهنا فإن العزلة تستتبع تناقضًا ما. إذ تحاول "الأنا" أن تتغلب على عزلتها بوسائل عدة: كالمعرفة، والحب، والصداقة، والحياة الاجتماعية، والأعمال الأخلاقية، والفن، وغير ذلك من الوسائل المتعددة. كما أن النتائج العملية للمعرفة تتوقف على درجة الاتصال بين الناس، وعلى طوائفهم الاجتماعية، وعلى تعاونهم المثابر، وبكلمة واحدة على الطريقة التي يحاربون بها العزلة. وعلى هذا يمكن أن نعالج مشكلة المعرفة بطريقتين، فإما أن نعالجها من وجهة نظر المجتمع الموضوعي، وإما أن نعالجها من وجهة نظر الاتصال الروحي[45].

لكن الفلسفة الأصيلة الوحيدة التي تمتلكها الذات هي طريقتها المعتادة في استيعاب الحياة الواقعية، والتعامل فعليًا مع الألم الفعلي أو مشاعرها المباشرة، والطعنات القاسية لتجاربها المباشرة. ولذا فإذا أريد للحياة أن تتجدد من نبعها الأساسي، في نفوس أعداد هائلة من

)42(John Cowper Powys: A philosophy of solitude, p. 60.

)43(John Cowper Powys: A philosophy of solitude, pp. 63, 79.

(44) نيقولاي بردياف: العزلة والمجتمع، ص ص 117–119.

(45) المصدر نفسه، ص ص 119، 146.

البشر، فلابد أن يتم هذا من خلال إرادة هؤلاء الأفراد أنفسهم، كجزء لا يتجزأ من فلسفة حياتنا الواقعية[46].

أحد أسباب عدم بلوغنا لهذا الهدف، هو أننا لا نرغب فيه، بل على العكس، نرغب بشدة في أشكال خارجية معينة من المتعة، نرغب في السلطة، والمجد، والمال، والصحة، والسمعة، ولكن ليس في السعادة! والحقيقة هي أن وعينا الجماعي الحديث قد ابتذل، ورخص، وأفسد، وشوه، وطغى على كرامتنا الفطرية لدرجة أننا نفضل ألا نبذل أي جهد في إرادة السعادة. إن بذل جهد روحي، وجهد أخلاقي، وجهد ذهني – كل هذه الجهود تبدو لنا أسوأ من مجرد الانجراف وراء الملذات البائسة والمشتتات التي يلقيها المجتمع في طريقنا[47].

هناك جانبان للمعرفة: جانب يشمل العلاقة بين الذات العارفة والوجود، والجانب الآخر يشمل العلاقات بين الذات العارفة و"الأنات" الأخرى، أي عالم الكثرة من الأشخاص والمجتمع. وفي الحالة الأولى تحل مشكلة العزلة بمشاركة الذات العارفة في سر الوجود. وفي الحالة الثانية لا تنجح العمليات الاجتماعية إلا في إحالة الإنسان إحالة موضوعية، وفي إفساد حساسية الأنا ووعيها، أي أنها لا تحقق غير نتائج سطحية ولا يحدث الاتصال الروحي، والانتصار الحقيقي على العزلة إلا عندما تتوحد "الأنا" مع الـ "الأنت" في حالة الحب والصداقة[48].

لكن لا شيء يستطيع التغلب على وحدتي الثقيلة. في بعض الأحيان أستطيع التغلب عليها عن طريق معتقد يجعلني أشعر بالسعادة، مثل عودة عالم غريب إلى وطني. هذا الوطن ليس أنا، بل هو العالم في داخلي. إنه ليس من السهل أن أجعل ما يدور في ذهني مفهومًا. إنني أكثر حميمية في داخلي، وهذا هو الجانب الأكثر غموضًا في حياتي. هذا فيما يتعلق بالعزلة، أو الشعور بالوحدة لدى برديائف. أما بالنسبة للحنين فهو شعور ممتد نحو العالم الروحي، وفساد هذا العالم، إنه يطمح إلى التعالي [49].

لم يكن لدى برديائف الشعور أبدًا في أن يندمج في العالم الموضوعي أو أن يحتل مكانًا فيه. لقد شعر في جوهره أنه خارج العالم الموضوعي، فمنذ طفولته عاش برديائف في عالم مختلف تمامًا، وتظاهر بالمشاركة في الحياة المحيطة. ويعبر برديائف: كنت أدافع عن

)46(John Cowper Powys: A philosophy of solitude, pp. 66, 92.

)47(Ibid, pp. 92, 93.

(48) نيقولاي برديائف: العزلة والمجتمع، ص ص 146، 147.

)49(Nicolas Berdiaev: Essai D'Autobiographie, pp. 3, 4.

نفسي ضد هذا لأنني كنت أدافع عن حريتي. وهذه العزلة (أو الوحدة) كان يشعر بها بردياف بشكل خاص داخل المجتمع من خلال علاقته مع الآخرين[50].

يرى بردياف أن الرجال المنعزلين Solitaires هم المتأملون والمنعزلون اجتماعيًا. رغم أن هذه العزلة مرتبطة بالتواصل الاجتماعي، ولكن لا ينبغي الخلط بين هذا التواصل والطبيعة الاجتماعية. لقد وصل بردياف إلى ما هو عميق في داخله، بما أن العالم غريب بالنسبة له. فهو لم يشعر قط بمتعة ونشوة الاتحاد الديني أو الوطني أو الاجتماعي، إذ إنه في كثير من الأحيان كان يصبو إلى نشوة الانفصال والتمرد. ويعترف برديائف بأنه ليس عرضة على الإطلاق لعدوى الجماعة، كما أنه يتجاهل الاندماج مع الجماعة[51].

إن الدين معناه قيام رابطة، ومن الممكن تعريفه بأنه محاولة التغلب على العزلة، وإلى تحرير الأنا من انعزالها، وإلى تحقيق الاتصال الروحي الحميم، وماهيته الخاصة تربطه بسر الوجود، وبالوجود نفسه. غير أن الله وحده القادر على قهر العزلة. ومن المحتم علينا، كما يرى برديائف، أن نفهم مرة أخرى أن إعادة كشف الإنسان سيكون كشفًا لله من جديد. وهذا هو الموضوع الأساسي في المسيحية، وفلسفة الوجود الإنساني فلسفة مسيحية، فلسفة إنسانية إلهية، والحق هو معيارها الأسمى، ولكن الحق حالة موضوعية، كما لا يمكن إدراكه بحسبانه موضوعًا .. الحق يتضمن قبل كل شيء نشاط الإنسان الروحي، وإدراكه يتوقف على درجة الاتصال بين الناس، وعلى اتصالهم في الدين[52].

يعتقد برديائف أن الروح ثورية، بينما المادة محافظة ورجعية. والحق أن المادة ضارة بالثورة الروحية الحقيقية، كما أنها تسخر من انتصاراتها. المادة تتعلق بالزماني، أما الروح فتسعى وراء الأبدية .. والوصول في حد ذاته معناه الأبدية. ولا يدعي برديائف أنه قد تغلب على كافة التوترات والتناقضات والمتنافرات التي تزخر بها نفسه. فقد كان يشعر دائمًا بفضيلة عظمى وبطاقة روحية تجيش بها نفسه، وخاصة في مسألة العزلة والاتصال الروحي في استقطابهما وتداخلهما معًا كوجهين أساسيين للحياة[53].

فالانسحاب والاتصال فعلان من أفعال الوجود الإنساني تدور حولهما حياة الإنسان الدينية كلها. ولكن كيف يمكن التغلب على البعد والاعتزال الناجمين عن الانسحاب؟

---

[50] Ibid, p. 3.

[51] Ibid, p. 3.

[52] نيقولاي برديائف: العزلة والمجتمع، ص ص 154، 254.

[53] نيقولا برديائف: الحلم والواقع، ص ص 42-44.

يجيب برديائف بأن الدين يزودنا بإجابة عن هذا السؤال، إنه يهتم بإنشاء جسر بين عالمين، وبالتالي بتحقيق الألفة والقرابة. فلم يشعر برديائف إطلاقًا أنه جزء من العالم الموضوعي، أو بأنه احتل فيه مكانًا محددًا، أو مركزًا معينًا، ذلك أن التجربة التي عاناها عن نفسه تجربة من التجارب التي تعزله جانبًا عن الجانب الموضوعي. فهو لم يتصل بهذا العالم إلا من ناحية السطح فحسب، وإحساس بالاتصال وعدم الاستقرار في العالم، ذلك الإحساس الذي عبر عنه برديائف فلسفيًا بأنه "الإحالة الموضوعية" Objectification كان في قلب نظرته للعالم.

وعندما يعرض برديائف جهاده في سبيل الحرية، فهو لا يجد بدًا من الاعتراف بأن محاولاته في هذا الصدد ضاعفت من إحساسه بالعزلة، وزادت من شدة صراعه مع العالم من حوله. كما أن نداء الحرية أثار في نفسه توترات باطنية وخاصة ذلك التوتر بين الحرية والمشاركة الوجدانية، ولكنه لم يكف أبدًا طيلة حياته عن أن يكون متمردًا[54]. ومن هنا جاءت الحرية الإبداعية.

ثالثاً- الحرية الإبداعية:

إنه ليس الوجود، بل الحرية هي التي تمثل توجهي. أنا، أي برديائف، متعالٍ على نفسي باستمرار، في كل مكان وفي كل شيء، أتجاوز الحدود وأتعالى عليها. ولذا يدعي برديائف أنه فيلسوف الحرية، لقد أراد الله الحرية، وإن فلسفة الحرية كما يوضحها برديائف هي التي يبنيها ويتقنها ويطبقها طوال حياته. فهو مقتنع بأن الله موجود فقط حيث توجد الحرية. ولذا ينبغي تقديس الحرية، رغم أن الحرية تسبب الألم، في حين أن العبودية تخففه. فالحرية ليست سهلة. ويرى أن الحقيقة هي التي يمكن أن تحررني، وأننا لا نستطيع قبول الحقيقة إلا من خلال الحرية. إن الهدف عند برديائف هو المعرفة الإبداعية التي ترفعنا فوق هذه الحياة اليومية، ومن ثم فإن التجربة الفلسفية والروحية التي استند إليها برديائف هي فكرة أولوية الحرية على الوجود. وهذا يعني أولوية الروح[55].

إن العالم ليس مُنتجًا مكتملاً، بل هو تدفق إبداعي. إنه خلق متعدد الأشكال لإرادات لا تُحصى، تُبدع ذاتها – فقط عندما تكون الروح وحدها، حيث يتدفق سحر الكون من خلالها[56].

---

[54] نيقولا برديائف: الحلم والواقع، ص ص 64، 65.

[55] Nicolas Berdiaev: Essai D'Autobiographie, pp. 3, 5, 16.

[56] John Cowper Powys: A philosophy of solitude, p. 51.

اهتم برديائف بالحرية الإبداعية وقد أدى مؤلفه "معنى الفعل الإبداعي" الصادر عام 1916، إلى جانب إدانته عام 1914 لقمع المجمع المقدس لبعض الرهبان ذوي المعتقدات الدينية المتباينة، إلى ابتعاده عن المفكرين الدينيين التقليديين. ولم يمنعه من المحاكمة بتهمة التجديف إلى اندلاع الثورة، والتي كانت ستؤدي على الأرجح إلى نفيه إلى سيبيريا. وقد رحب برديائف في البداية بالثورة كآلية تاريخية لتحرير الشعب من فساد النظام القديم الاستبدادي، لكنه تحول إلى إدانة البلاشفة بمجرد أن اتضحت الطبيعة الشمولية للنظام الجديد[57].

يمكن أن نتناول مشكلة الإبداع على مستوى مختلف، فليس الإبداع بحاجة إلى أي تبرير من وجهة النظر الدينية، لأنه هو نفسه تبريره الخاص المستمد من وجود الإنسان نفسه، إنه ما يؤلف علاقة الإنسان وتجاوبه مع الله. هذا ما يراه برديائف من معنى للإبداع. و لقدعانيت لحظات، أي برديائف، من الإدراك الحاد لخطيئة الإنسان، ومن المحتمل أن هذه اللحظات تميز فقط اقترابي من الأرثوذكسية، ولكني أدركت أيضًا أن البقاء ثابت في هذا الوضع، وأن تسليم نفسي تسليمًا تامًا للإحساس بالخطيئة، معناه الإحباط والعجز عن الحياة[58].

وقد يكون الشعور بالخطيئة مرحلة في الطريق نحو التجديد الروحي والاستنارة، بيد أنه قد يكون أيضًا نذيرًا بظلمة لا مهرب منها. ولن يكون ثمة إبداع واستنارة إذا انحطت الحياة إلى مجرد الشعور ببؤس الإنسان ونفسه وخلاصه الممكن. وإذا كان لابد للتجدد أن يتم، فلابد أن أو ينبغي أن يتحول الإحساس بالخطيئة إلى تجربة أخرى، أكثر من ذلك سموًا[59].

يُطلق على برديائف "فيلسوف الحرية" أو "أسير الحرية". والحق أنه يعشق الحرية فوق كل شيء آخر. فمنشأ الإنسان الحرية ومرجعه إليها. وهي المصدر الأولي للوجود وشرطه، وكما يقول برديائف عن نفسه: "لقد وضعت الحرية بدلاً من الوجود في أساس فلسفي"، ذلك أن سر العالم يكمن في الحرية، وقد أراد الله الحرية، والحرية هي منشأ المأساة في العالم. الحرية في البدء والنهاية. ولذا يمكن القول إن برديائف قد عكف طيلة حياته على صياغة

---

[57] James Wayne Dye: Nikolai Berdyaev and His Idea on the fundamental Nature of All Entities, p. 110.

[58] نيقولاي برديائف: الحلم والواقع، ص 210.

[59] المصدر نفسه، ص ص 210، 211.

فلسفة من الحرية. وكان يحركه اعتقاد أساسي ألا وهو أن الله حاضر حضورًا حقيقيًا وفاعلاً في الحرية وحدها[60].

يرى برديائف أن الحرية تحمل طابعًا مقدسًا، وقد كان يشعر بحريته منذ طفولته المبكرة، وتحركه روح الاستقلال في كل تفكيره وأفعاله، وكانت أضأل مظاهر العبودية تثير في نفسه عاصفة من الاحتجاج والعداء. فلم يكن يقبل التخلي عن الحرية أو الانتقاص منها، ولا أن يوافق على دفعها ثمنًا لأي شيء، رغم علمه دائمًا بأن الحرية تؤدي إلى الألم[61].

لا يسعنا إلا أن نعترف بأن للإنسان روحًا خلاقة، وأن هذه الروح الخلاقة المبدعة تستطيع أن تنسق جهوده وتضم أشتاتها وتجمع متفرقاتها، وتكوّن منها كلاً مركبًا، وترسم له في حرية وطلاقة طريق العمل وميدان الجهاد. وتمكنه من الانتفاع بالمادة التي يسرتها له الطبيعة والمجتمع والتاريخ. وتطوّع له أن يكوّن منها شيئًا فذًا يحمل طابعه الخاص، ويعبر عن فرديته الإنسانية، وهذه الروح تدرك بالبداهة وجود القيم الأخلاقية[62].

يُتصور الفعل الإبداعي على أنه رفض للعالم وهروب أخروي، فعل لتجاوز "حدود العالم". إنه اختراق للحرية، هروب من الضرورة، من الدائرة المغلقة فحسب. في الفعل الإبداعي، يُتاح الوصول إلى الأبدية. وعلاوة على ذلك ينطوي فعل المعرفة على درجة كبيرة من الإبداع. يتوافق ذلك مع مفهوم برديائف للروح الحرة ليس كجوهر معطى، بل كفعل ديناميكي، حيث يؤكد برديائف على الطبيعة المتعالية للروح وقدرتها على جعل التطور من الوعي العادي إلى الوعي الفائق ممكنًا. فالفكر البشري المتكامل هو الروح، إنه روحي، متجذر في الوجود. فالوعي يحتوي على عنصر روحي بناء. والروح هي فاعل الوعي الفائق في الوعي[63].

وهنا يبدو أن رفض العالم والهروب الأخروي، هو نوع من العزلة التي يتحدث عنها برديائف، ولكنها وثيقة الصلة بالفعل الإبداعي الروحي من حيث صلة العزلة بالأبدية.

يجب أن تكون الحياة الأخلاقية إبداعًا أبديًا، حرًا ومشتعلاً، أي شبابًا روحيًا دائمًا. وعند هذه النقطة تجد الأخلاق الإبداعية تطبيقها على أهم مشكلة في الوجود الإنساني، والتي لا تجد لها التوجهات الأخلاقية استجابة مرضية – وهي مشكلة الموت– وتصبح ما يسميه

---

[60] نيقولاي برديائف: الحلم والواقع، ص 57.

[61] المصدر نفسه، ص 57.

[62] المصدر نفسه، ص ص (ط، ي).

[63] Fabian Linda: The spiritual of Revolt, Nikolai Berdiave 's Existential Gnosticism, pp. 208, 211.

برديائف "الأخلاق الأخروية". وهنا يتجاوز المرء "الخير والشر"، لأن الموت شرط من شروط معنى الحياة[64].

ومن الضروري أن نضع في أذهاننا أن الإبداع الإنساني ليس مطلبًا أو حقًا من جانب الإنسان، بل مطلب الله ودعوته للإنسان. الله ينتظر فعل الإنسان الخلاق، وما هو حق بالنسبة لحرية الإنسان، يصدق أيضًا على قدرته الخلاقة، ذلك أن الحرية هي أيضًا نداءات الله للإنسان، وهي واجب الإنسان إزاء الله. فهي في الواقع إرادة الله المحتجبة، لا المكشوفة. إن الإنسان يتجاسر فيخلق، ومثل هذه الجسارة والقدرة الخلاقة علامة على تحقيق الإنسان لإرادة الله. إن فكرة الله هي أعظم فكرة إنسانية، وفكرة الإنسان هي أعظم فكرة إلهية[65].

يعترف برديائف بأن فكرة أن الله في حاجة إلى الإنسان فكرة حاضرة فعالة في أعماق الحياة الإلهية. وهذه لا تكشف عنها المذاهب اللاهوتية، بل التجربة الروحية، حيث تتحول الدراما الإلهية إلى دراما إنسانية، وما هو أعلى ينقلب إلى ما هو أدنى. بيد أن هذا لا يتسق على الإطلاق مع الفداء، بل هي بالأحرى لحظة أخرى في الطريق الروحي نفسه، وفعل آخر في الدراما الصوفية لله والإنسان. وفي رأي برديائف أن هذه القدرة الخلاقة هي التجاء إلى اللامتناهي، وهي ليست نشاطًا يقوم بالإحالة الموضوعية في التناهي. وإنما نشاط يعلق على المتناهي متجهًا صوب اللامتناهي. والفعل الخلاق معناه الوجد، أي النفاذ صعدًا نحو الأبدية[66]. كانت "الثورة الداخلية" غاية المساعي الأخيرة لبرديائف. وبشكل أبعد، غاية نظريته المعرفة الأخروية. وهذا يتطلب جهدًا أو إرادة مكثفة ويفترض تغييرًا في بنية الوعي[67].

إن الحرية هي جوهر فلسفة برديائف بأكملها. وهنا يقدم برديائف تحليلات، بل ودفاعات عاطفية عن الحرية. والأهم من ذلك أنه يعتبر الحرية مفهومًا ميتافيزيقيًا رئيسيًا يُعد تطويره ضروريًا لفهم كافٍ لطبيعة الوجود. وقد اعتقد برديائف أن تفرده كفيلسوف يكمن في هذا الاستخدام لفكرة الحرية. ويكتب: "لقد جعلت الحرية، لا الوجود، أساسًا لفلسفتي: لا أعتقد أن أي فيلسوف آخر فعل ذلك بهذه الطريقة الجذرية والشاملة" ويجب أن تكون الحرية مرتبطة بهدف كوني، والله هو الموضوع النهائي للفعل الإبداعي[68].

---

[64] James Wayne Dye: Nikolai Berdyaev and His Idea on the fundamental Nature of All Entities, p. 129.

[65] نيقولاي برديائف: الحلم والواقع، ص 211.

[66] المصدر نفسه، ص 212.

[67] Fabian Linda: The spiritual of Revolt, Nikolai Berdiave 's Existential Gnosticism, p. 211.

[68] James Wayne Dye: Nikolai Berdyaev and His Idea on the fundamental Nature of All Entities, pp. 113, 116.

ولذا فإن الموقف الاستبدادي أو المعايير الثابتة مرفوضة على الإطلاق، كما هي مرفوضة في البحث عن الحقيقة. وقد تجلت الطبيعة الإبداعية للوجود الإنساني في تطوير الأخلاق تمامًا كما تجلت في نمو المعرفة. ويرى برديائف أن التعطش للحرية، والتركيز على العاطفة، والرغبة الواسعة في التعبير الإبداعي، كلها قوى مهمة وجديدة نسبيًا في الحياة الأخلاقية للإنسان الغربي. والأخلاق الإبداعية تشمل هذه الأيديولوجيات الأخلاقية بقدر ما يكون تحقيق العدالة والحب والاستقامة والقيم الأخلاقية الأخرى أحد أشكال الإنجاز الإبداعي. فيعبر عن الإبداع بالفداء (التضحية) في الحب[69].

إن الحرية مطلب عسير، وعبء ثقيل، والناس يتنازلون عن الحرية في أغلب الأحيان لتخفيف أعبائهم. فقد كانت الحرب من أجل الحرية التي أشعل برديائف ميزانها طيلة حياته أعظم الأشياء قيمة وأهمية بالنسبة له. ولكن كان لهذه الحرب أيضًا جانبها العكسي، إذ جرت في أذيالها المعارضة والاغتراب والانفصال (العزلة)، بل العداء. إذ كانت الحرية تدفعه أحيانًا إلى صراع مع الحب. ولكنه لا يستطيع أن يقول إنه قد اكتسب الحرية أو تجربة الحرية، إذ كانت الحرية تبدو لبرديائف واقعًا أوليًا مبدأيًا، باعتبارها الشيء القبلي في الوجود[70].

وفكرة الحرية تشير عند برديائف إلى شيء أكثر أساسية من الكمال نفسه، ما دامت الحرية هي مفتاح الكمال، وفي غيابها ينقلب الكمال إلى قهر وعبودية، وبالتالي يناقض طبيعته ذاتها. إذ ينبغي أن يتولد كل ما في الحياة الإنسانية عن الحرية، وأن يمر خلال الحرية، وأن يرفض كل ما يخون الحرية. وهنا يرفض برديائف أي سلطة أو قوة خارجية أيًا كانت، فهو لم يذكر أبدًا طيلة حياته أن اعترف بأي سلطة أو قوة خارجية سواء في المنزل أو المدرسة أو في أبحاثه الفلسفية أو في حياته الدينية. ولذا فإن برديائف واحد من أكثر الفلاسفة اللاتقليديين[71]. وهنا يرفض برديائف استبدادية السلطة التي تتمثل في عبودية الديمقراطية، عبودية الرأسمالية والماركسية، العبودية المسيحية، عبودية العلم، عبودية الإنسان نفسه.

رابعاً- الحرية الإبداعية .. والغنوصية .. والحرية:

---

[69] James Wayne Dye: Nikolai Berdyaev and His Idea on the fundamental Nature of All Entities, pp. 127, 128.

[70] نيقولاي برديائف: الحلم والواقع، ص ص 58، 59.

[71] نيقولاي برديائف: الحلم والواقع، ص 59.

إن المعرفة الغنوصية هي معرفة شيء غير قابل للمعرفة بطبيعته، وبالتالي فهي ليست حالة طبيعية. تشمل موضوعاتها كل ما ينتمي إلى عالم الوجود الإلهي، أي نظام العوالم العليا، وما سيصدر عنها من خلاص للإنسان. مع موضوعات من هذا النوع، تغدو التجربة روحية، حيث يحل تلقي الحقيقة إما من خلال المعارف المقدسة، أو من خلال الاستنارة الروحية، محل الجدل والعقلانية، لأن موضوع المعرفة الغنوصية النهائي هو الله. فحدوثه في النفس يحول العارف نفسه يجعله مشاركًا في الوجود الإلهي (وهذا يعني أكثر من مجرد استيعابه للجوهر الإلهي)[72].

أشار برديائف إلى رؤيته الغنوصية، وارتباط الحرية بالغنوصية. فالحرية هنا حرية العبقرية، حرية الروح، وإبداع الإنسان الحرية. والحرية ليست ما يمكن للإنسان أن يطلبه من الله، بل ما يطلبه الله من الإنسان[73]. وهنا يبدو أن غنوصية برديائف تنطوي على شكل وجودي من المعرفة يربط العارف بالوجود أو بالواقع أو بالعالم. وربما اقترب برديائف من كونه صوفيًا، أكثر منه غنوصيًا، فالشعور السائد لدى الصوفي هو شعور الوحدة، والتجربة الحاسة لدى الغنوصي هو شعور بالاغتراب في العالم[74]. وربما كان ذلك الاغتراب نوعًا من العزلة والانفصال عن العالم من أجل الاتصال مع الروح الإلهي. وهنا تتضح معالم العلاقة بين الغنوصية والعزلة.

تكشف الغنوصية عن رؤية خاصة للعلاقة بين الإنسان والكون والله، حيث العالم الإلهي الحقيقي الذي تنبع منه الذات الأعمق المساوية لله في الجوهر. فالغنوصية رؤية قوية ونبيلة بالقدر نفسه للإنسان بوصفه روحًا إلهية، بالإضافة إلى دفاعه عن كرامته الداخلية في مواجهة ما يُنظر إليه على أنه قوى استعباد خبيثة، وفي حالة برديائف، قوى إضفاء الصفة الموضوعية. ويمكن اعتبار النضال الغنوصي سعيًا إلى الأصالة والحرية ضمن ما يُنظر إليه على أنه مكان للعزلة[75].

ولتوضيح ما قيل للتو بشكل مختلف قليلاً وأكثر منهجية يمكن سرد الدوافع الرئيسية للغنوصية والتي سيتم استكشافها في التحليل الموضوعي على النحو التالي:

–العنصر الثوري أو المتمرد "رفض العالم"، "ثورة الروح".

)72(Fabian Linda: The spiritual of Revolt, Nikolai Berdiave 's Existential Gnosticism, p. 190.

)73(Marek Jediński (2023): Russian Yearning for Elite power,Nikolai Berdyaev's Reflections on The Mytaphysics of Democratism, Adam Mickiewicz University, Pozanan,Poland, p. 44.

)74(Fabian Linda: The spiritual of Revolt, Nikolai Berdiave 's Existential Gnosticism, p. 191.

)75(Ibid, pp. 10, 11.

-إنقاذ الذات من القوى التي تعيق حريتها.

-مركزية الغنوصية كمصدر كاشف للبصيرة ومعرفة مخلصة، وإمكانية للاستنارة الروحية.

ولذا فإن الغنوصية معرفة تشاركية وتجربة روحية، تبتغي الجوانب الأخروية[76]. كما تبتغي التواصل مع الروح الإلهي.

يقرر برديائف بأن فلسفته صوفية، دينية، ولكن بمعنى مختلف، يريد تحرير الإنسان من سيطرة الضرورة الموضوعية. والدين الذي يعترف به برديائف هو الدين الروحي. فيعترف برديائف بأنه مسيحي حر، يفكر في المسيحية للخروج من النقطة "الميتا"، لدخول الحياة الجديدة والإبداعية، هذا هو المسار المسيحي. فالمهمة الإبداعية للإنسان هي الموضوع الأساسي لحياته، وطرح هذا الموضوع ليس نتيجة فكره الفلسفي، بل هو تجربة داخلية. والجرأة الإبداعية هي تحقيق إرادة الله عند برديائف. كما أن النشوة الإبداعية هي فتح للانهاية، ومشكلة الضمير الديني الجديد في المسيحية. ومن ثم فإن التعبير عن تجربتنا الروحية هو اللغز الإلهي المتسامي، حيث يسود النور الإلهي الذي لا يوصف. إن هذه الحرية الإبداعية توجد على المستوى الوجودي[77].

ورغم حرص برديائف على عدم وصفه بأنه "غنوصي"، إلا أنه كان يستخدم مصطلح "غنوصية" بشكل متكرر بدلالات إيجابية. بل إنه ذهب إلى حد القول بأن الغنوصية المسيحية الحقيقية ممكنة، وهذا هو هدف الفلسفة الدينية، وهو ما يمكن تسميته "بالغنوصية الوجودية"، خاصة في حال عدم الإشارة صراحة إلى الغنوصية[78].

إن الغنوصية تعني شكلاً من أشكال المعرفة المحرِرة والمخلِّصة. وهنا تشير الغنوصية إلى معرفة تتكامل مع الوجود. ولدى برديائف الغنوصية أيضًا معرفة روحية، قائمة على التأمل الحي في العالم الروحي، ويبدو أن دافع برديائف قد تغير، من توق إلى الاندماج بشكل أعمق مع الوجود إلى رغبة في التغلب عليه تمامًا. هذه هي نظرية المعرفة المتأخرة، وحجته هي أنه يمكن تعريف الموقف الغنوصي بأنه "ثوري"[79].

إن الغنوصية عند برديائف مرتبطة بالوجودية أي بالذات الإنسانية، ومركزيتها، وكذلك الاهتمام بمصير الإنسان وتركيزه على الحرية والسعي نحو الأصالة. فالوجودية عند برديائف تركز بشدة على الوجود الإنساني الملموس (العيني)، الذي ينطلق من الواقع. ولذا

---

[76] Ibid, p. 11.

[77] Nicolas Berdiaev: Essai D'Autobiographie, pp. 16, 23, 25, 29, 30.

[78] Fabian Linda: The spiritual of Revolt, Nikolai Berdiave 's Existential Gnosticism, p. 8.

[79] Ibid, pp. 192, 195.

فإن الفلسفة الوجودية هي إدراك معنى الوجود من خلال الذات. فالذات وجودية متجسدة، تستند إلى التجربة الروحية. إذ إن جوهر الإنسان هو معرفة الذات والله[80].

إن تجربة بردیائف الدينية التي اختلفت عن التيارات السائدة، ربما لعبت دورًا هامًا في شعوره بالانفصال (العزلة) من أجل خوض تجربة روحية مختلفة، ربما كان بردیائف أكثر انشغالاً من أي شخص آخر بموضوع الإنسان، فقد كان الحدس الأساسي بالنسبة له، هو الحدس حول الإنسان، وحول الحرية والإبداع. ولم يكن هذا نتيجة فكر فلسفي، بل نتيجة تجربة داخلية معيشة، وتنوير داخلي[81].

ولذا فإن الفكرة الغنوصية للقوة الإبداعية هي فكرة باطنية بمعنى أنها ليست وحيًا من الله، بل شيء أبقاه سرًا. إنه أمر لا يكشفه الله للإنسان مباشرة. ومن خلال القيام بمهمته الإبداعية التي أوكلها الله إليه، يستطيع الإنسان تبرير نفسه. وبالتالي، فإن إبداع الإنسان لا غنى عنه بمعنى ما، حتى بالنسبة لله نفسه، إذ ليس هناك كشف إلهي في الإنسان فحسب، بل كشف الإنسان في الله. ينتظر الله كشف الإنسان كإثراء للحياة الإلهية نفسها. هذه بالتأكيد واحدة من أعمق مفاهيم المسيحية الجديدة التي طرحها بردیائف، والتي انبثقت، وفقًا لمبدعها، من تجربة روحية حميمة، وتنوير داخلي، مما يشير إلى شكل صوفي من المسيحية[82].

إن الحياة شيء نشعر به، شيء نحن عليه، وجوهرها يجب أن يفلت دائمًا من التحليل العقلي. وجميع التجارب الحية في استمراريتها يُطلق عليها عبارة "الروح". إننا نستخدم في أسلوبنا العلمي مجموعة مختلفة من العبارات، ولكن العبارات لا شيء. بل إن تجارب الحياة هي الأهم، ووحدة هذه الروح الواعية، والتي هي في آن واحد مركز ومحيط كياننا كله. ومهمة بردیائف هي جعل الذات الباطنة غاية الحياة الأساسية. وبناء عليه تكون غاية حياتك هي التواصل مع الله. هذا هو جوهر المسألة. كما أن حياتنا تتجاوز بكثير مجرد الفعل العقلاني، كما سبق القول، إذ يجب أن تكون صيغة الحياة تحمل مفتاح فعل نفسي، فعل عقلي، فعل إرادي، فعل إبداعي، فعل تشارك فيه الأنا الطاقة الإبداعية للسبب الأول ألا وهو التواصل مع الله[83].

)80(Fabian Linda: The spiritual of Revolt, Nikolai Berdiave 's Existential Gnosticism, pp. 200, 207.

)81(Ibid, pp. 73, 74.

)82(Ibid, p. 77.

)83(John Cowper Powys: A philosophy of solitude, pp.43 -46, 199, 205.

إن أنطولوجيا برديائف صادرة عن اعترافه بأولوية الحرية على الوجود، وهذا معناه في الوقت نفسه أولية الروح، لأن الإنسان من حيث الروح حر، وتتألف حرية الروح في أن الإنسان لا يتحدد بشيء آخر إلا نفسه، ما دام الروح هو أن يتحدد الإنسان من الداخل، وأن يكون نفسه. والوجود هو الحرية، وإذا كانت الحرية موجودة، فلا يمكن أن تتحدد بشيء آخر غير نفسها. وهذه الحرية توجد في الله، وهي أكثر المبادئ غموضًا في الحياة الإلهية[84].

إن الغنوصية مصدر للبصيرة، وهي نوع من المعرفة. فالفكر الغنوصي الذي يمثله برديائف يعترف بنمط معرفي فوق عقلاني أو صوفي. ولذا فإن برديائف غنوصي. إنه يحارب المسيحية التقليدية تحديدًا، ويقدم نفسه كقائد ديني يحمل على عاتقه عبء إصلاح الكنيسة، وتدشين الروحانية الجديدة التي يقتضيها المستقبل. وهنا فإن الغنوصية، عند برديائف، شكل من أشكال التصوف. ولكن أفكار برديائف وميوله الغنوصية تنحو نحو الحرية والروح[85].

إن الموضوع المركزي والأساسي في الغنوصية هو أن الإنسان كفرد يحمل شرارة إلهية غير قابلة للتجزئة، تحتفظ بوعي أصيل بالله. وهذا موجود كمبدأ روحي خالص، كمفتاح بدائي كامن في القلب. وكان هدف الغنوصي هو إيقاظ هذه الشرارة الإلهية، وبالتالي إطلاق المعرفة الكامنة فيها. وقد عبر الغنوصيون بطبيعة الحال عن ابتهاجهم وفرحهم بكشف هذه المعرفة. كما أن الغنوصية هي فكرة التماثل الإلهي للشرارة التي تحتاج إلى الإيقاظ وإعادة التكامل. كما أن هذه الغنوصية تنطوي على الهوية الإلهية للعارف (الغنوصي)، والمعروف (الجوهر الإلهي للذات المتعالية)، والوسائل التي يعرف بها المرء (الغنوصية كملكة إلهية ضمنية يجب إيقاظها وتحقيقها)[86].

يطالب برديائف بالحرية غير المشروطة لروح الإنسان من جميع الأشكال الاجتماعية والسياسية. وقد أطلق بعض المؤلفين على برديائف لقب "الفوضوي الصوفي". لقد كان برديائف ضد الجماهير وضد عالم الكم، كان حازمًا للغاية في رفضه لسلطة الجماهير[87].

يدعو برديائف لتحرير الإنسان والتخلي عن العبودية، حيث رأى برديائف أن الديمقراطية لا تبالي بمفهوم إرادة الشعب، ولا بما ستؤول إليه، لذا تنجرف الديمقراطية في بحر من

---

[84] نيقولا برديائف: الحلم والواقع، ص 107.

[85] Fabian Linda: The spiritual of Revolt, Nikolai Berdiave 's Existential Gnosticism, pp. 15, 16.

[86] Fabian Linda: The spiritual of Revolt, Nikolai Berdiave 's Existential Gnosticism, pp. 24, 25.

[87] Marek Jediński: Russian Yearning for Elite power, pp 45, 46.

اللامبالاة الروحية، كما أن الديمقراطية تضع التصويت الشعبي تحت سلطة الحكم[88]. ولذا يرفض بردياف التعطش للسلطة والسيطرة[89].

إن كلمة النزعة الروحية لدى بردياف لا تشير إلى أية مدرسة فلسفية أو صوفية أو عينية في التفكير، بل هي مجرد إدراك وجوده. فقد انتهى بردياف إلى الاعتقاد بالواقع الأولي للروح على مستوى أعمق من مجال التفكير النظري ويسمو عليه، ولم يهجر مطلقًا هذا الموقف الأساسي حتى في مرحلته الماركسية، ولا يعتقد بردياف أن أولئك الذين يعتنقون هذا الاعتقاد "الروحي" الأساسي يمكن أن يكونوا ماديين تمام المادية، ووجهة النظر الروحية ترى أن الروح والحرية شيء واحد، بينما ينظر المادي إلى الروح على أنها حقيقة خارجية تفرض السلطة وترغم على الاعتراف بها، وذلك لأنه لا يستطيع الاعتراف بالواقع الأولي للروح. أما صاحب النزعة الروحية لا يهتز من الخارج بأية طريقة وحركته دائمًا من الداخل إلى الخارج[90].

إن كل إنسان له روح حرة، وبرديائف ضد الجماعة، ويرى أن الوعي هو الأعمق، وهو نقطة الاتصال بين الإنسان والله. وقد كانت الأنظمة الدينية تشكل مثالاً للشمولية العتيقة، ولكن بعد فشل الحكم الديني المسيطر، أصبحت المسيحية جزئيًا تقمع طاقات الروح والضمير الديني الأخلاقي والكرامة الإنسانية والروح الحرة، وهنا يكمن أصل المأساة المعاصرة[91]. وأن الاتصال الذي يتحدث عنه برديائف هو ما يقهر العزلة، ويتغلب عليها. فهي عزلة ضد سلطة العالم الموضوعي، والعالم المجرد، واتصال بين الإنسان والله.

لقد اكتسب برديائف بفضل إعادة توجيهه الروحي قوة باطنة جديدة، وتغيرت حياته، وأحس كأنما تحمله النشوة الروحية على أجنحتها. لقد أحس بالاستقرار الروحي، وبالأساس الروحي الوطيد للحياة، ذلك أن برديائف نذر حياته للبحث عن الحق والمعنى. فأن تبحث عن الحق معناه أنك قد وجدته فعلاً، وأن تصل إلى اعتقاد يتعلق بمعنى الحياة، معناه أنك قد وصلت إلى حالة من الوجود مشحونة بذلك المعنى، وهي أن برديائف قد أقدم على فعل من أفعال الإيمان بقوة الروح، وهذا الإيمان لم يتخلَ عنه مطلقًا. وهذا المعنى الأسمى تواكبه رغبة في الإصلاح الأخلاقي والتطهير، بل واتجاه إلى الزهد، وانتهى برديائف إلى الشعور باستقلال الروح عن جميع الأشياء التي قد نجد فيها تعبيرًا عنها، وصار برديائف

---

[88] Ibid, pp. 51-53.

[89] Nicolas Berdiaev: Essai D'Autobiographie, p. 1.

[90] نيقولاي برديائف: الحلم والواقع، ص 88.

[91] Nicolas Berdiaev: Essai D'Autobiographie, p. 35.

يفهم معنى التضحية، وتسليم الذات من أجل حرية الروح التي لا يشوبها دنس. وهنا قد بلغ برديائف قمة الإخلاص والنفاذ إلى معنى الوجود[92].

ومن جانبه، فلم يجد برديائف وسيلة لنقل تفكيره للآخرين إلا بدعوتهم لمشاطرة حدسية، دون محاولة لإرغامهم على الاعتراف بقضاياه الفلسفية عن طريق البرهان العقلي. ولكن على الرغم من أن أسلوب برديائف وطريقته في الكتابة قد يكونان متقطعين مفككين، فإن تفكيره ليس كذلك، بل على العكس، ينبع من رؤية فريدة شاملة، ويرمي إلى الكشف عن المعنى المتكامل[93].

إن المعرفة اقتراب من الحق عن طريق التجربة الشخصية، إنها عملية من الداخل، من الذات إلى الخارج. وهنا يؤكد برديائف على سيادة "الرجل المتصوف" Homo mystics على "الرجل الديني" Homo religious، وهذا هو ما ترك طابعه على نظريته الفلسفية كلها، أو بالأحرى اتجاهه الروحي كله. إذ كان يرافقه اقتناع صوفي أصيل منذ لحظة "انقلابه"، بينما لم يلعب العنصر الديني والاعتقادي خاصة غير دور ثانوي. فقد كان التصوف مفهومًا على أنه طريقة من المعرفة أكثر من أن يكون نتاجًا كاملاً يثير خيالنا دائمًا. وهنا يؤمن برديائف بوجود تجربة صوفية شاملة وروحية كاملة، لا يمكن وصفها في حدود الاختلافات الطائفية في الأنماط المتعددة للتصوف الذي، وإن كان يسعى إلى الهدف نفسه، إلا أنه يتطور وفقًا لخطوط مختلفة.وهنا عمق أكبر، وبصيرة أنفذ في الأنماط (الغنوصية) من التصوف أكثر مما هو موجود في ذلك النوع الذي اعتمدته الكنيسة رسميًا[94].

يرى برديائف أن الإنسان كائن مستقل روحيًا، وينبغي تحديد علاقته بالله على أنها حرية. ولذا يرفض برديائف أن ينتهج المسيحيون نهج "الخنوع" أو "التواضع"، وأن يتصرفوا على هذا الأساس، بما يصاحب ذلك من وعظ عن الخطيئة، وهذا نابع بلا شك عن نزعة التشبيه بالمجتمع، وتصورات الخضوع لقوة متسلطة، والإذعان والخضوع لسلطة أعلى. ولذا من الممكن أن نفهم الخطيئة على أنها فقدان للحرية، أو امتحان للحرية من أن تكون خروجًا على الطاعة. وعلى هذا عانى برديائف دائمًا من فكرة خطيئة الإنسان وابتعاده عن

---

[92] نيقولاي برديائف: الحلم والواقع، ص 89.

[93] المصدر نفسه، ص 90.

[94] المصدر نفسه، ص ص 91، 92.

الله[95]. وبفضل جهده، اكتسب برديائف الإيمان، لقد استعاد إيمانه بالمسيح، بشأن إيمان أكثر حرية من إيمان الكنيسة الكاثوليكية، التي انفصل عنها فيما بعد[96].

وعندما أدركت، أي برديائف، نفسي باعتباري مسيحيًا، اعتنقت الألوهية – الإنسانية، أي أنني بعد أن أصبحت مؤمنًا بالله، لم أكف عن إيماني بالإنسان وبكرامة الإنسان وحريته الخلاقة. لقد صرت مسيحيًا، لأنني كنت أبحث عن أساس أعمق وأصدق للإيمان بالإنسان. ويستطرد برديائف بأنه لم يكن من الممكن أن يتزعزع إيماني بواسطة الإنسان أيًا كان الحضيض الذي يمكن أن ينحدر إليه، لأن هذا الإيمان لا يقوم على ما يعتقده الإنسان في الإنسان، بل على ما يعتقده الله في الإنسان[97].

إن السر المزدوج للمسيح، في نظر برديائف، أن الله في حاجة الإنسان، وإلى استجابته الخلاقة للنداءات الإلهية. فالإنسان لا يفنى في الله، بل يصير إلهيًا، وإنسانيته تدوم في الحياة الأبدية. لأن الوعي الإنساني، كما يرى برديائف، قابل للتغيير والتطهير والتقوية والتعميق، فهو قادر إذن على تلقي حقائق جديدة، أو فهم للحقائق القديمة بطرق جديدة، الحق أبدي، وكل ما ينبع عن الحق وحده أبدي. والحق لا يهبط علينا من علٍ، كما أنه لا يغشى العين كما يغشاها موضوع مرئي محسوس. الحق طريق وحياة أكثر من أن يكون حقيقة موضوعية تنهض إزائي، وهو يكتسب نتيجة لمسابقة روحية، وحركة من الخارج إلى الداخل[98].

ولقد بحثت باستمرار، أي برديائف، خلال تطوري الديني كله . عن الاتصال الروحي بالآخرين، مدركًا الأهمية الشديدة التي تتسم بها الصلات مع الآخرين. والحق أن الاتصال الروحي بالآخرين منبع خاص جدًا من منابع المعرفة الدينية، ومن خصائص الحياة الدينية أن الإنسان المشارك فيها، سيتغلب على عزلته، ويدخل في اتصال روحي مع غيره من الناس. ومع ذلك فقد عانيت، أي برديائف، مصاعب عظيمة في هذا المجال خاصة، وإن لم أرغب قط في أن أبقى مغلقًا على نفسي في موقف من مواقف العزلة التي لا سبيل إلى الفكاك منها[99].

---

[95] نيقولاي برديائف: الحلم والواقع، ص ص 184،185.

[96] Panteleimon Pavlincicuc: The House of Berdyaev. A place of convergence, p. 9.

[97] نيقولاي برديائف: الحلم والواقع، ص 185.

[98] نيقولاي برديائف: الحلم والواقع، ص ص 185، 187، 188.

[99] المصدر نفسه، ص 190.

ويرى برديائف أن كل ما حدث له، إذا شئنا أن نأخذ ذلك، على أعمق مستوى صوفي. وهنا إجابة الصراع الأساسي الكامن في نفسه، فبرديائف يختبر من ناحية أحداث عصره ومصير العالم الذي يعيش فيه باعتباره أحداثًا تقع له، وباعتباره مصيره الخاص، ولكنني، أي برديائف، أشعر أن العالم غريب عني تمام الغربة، منفصل عني مطلق الانفصال، ولو أنني كتبت يومياتي لجاءت محتوية على هذه الأسطورة وهي: لا شيء ملكي والأشياء جميعًا تدخل في حوزتي[100].

يعبر برديائف أنه عندما استيقظت اهتماماته الدينية، وجد نفسه منجذبًا بغريزته إلى التصوف. ومن الأشياء الأولى التي استرعت نظر برديائف في دراسته للدين والتصوف العلاقات المتوترة التي بدا له وجودها بينهما، أي بين الدين والتصوف. إذ كان الدين يخشى التصوف في أغلب الأحيان، كما بدا التصوف عاملاً معوقًا لوظيفة الدين المنظمة، ومهددًا بقلب المستويات المقررة رأسًا على عقب. كما استرعى انتباه برديائف أيضًا الوحدة الكامنة وراء التجربة الصوفية بغض النظر عن الاختلافات الطائفية، وهي وحدة تغوص إلى الأعماق أو تعلو على مجال الدقة القطعية والتباين المذهبي[101].

أما طريقه الروحي الذي أدخله في اتصال مع عالم الأرثوذكسية، فقد شعر معه بنفس الألم الذي شعر به في العالمين الأرستقراطي والثوري، ووجد هناك نفس الهجوم على الحرية، ونفس العداء تجاه استقلال الشخص وعمله الإبداعي. ومع ذلك، فقد تم طرح الموضوع هنا على نطاق أوسع، ذلك أن الدين يمس أعماق النفس البشرية، ولذا فقد اضطر برديائف لبذل جهوده من أجل حماية الحرية والكرامة. فالقوة في المجتمع معادية للحرية وتميل إلى إنكار الشخص البشري. ولذا فلا يمكن للأشخاص المثقفين إلا أن يحملوا الحرية الإبداعية والاستقلالية الفردية من أجل كرامة الإنسان[102].

تقوم الحرية بمعناها المعتاد على حرية الاختيار وإمكانية اللجوء إلى الاختيار بين الخير والشر، وهذا يفترض التمييز بينهما. كما أن الحرية بالنسبة للقانون تعني المسؤولية والعقاب. أما بالنسبة لبرديائف فالحرية لها معنى مختلف تمامًا، الحرية هي استقلاليتي، وعزيمتي الداخلية، وكياني، وقوتي الإبداعية، وأين أنا في المسار الإبداعي. كما أن حرية الإنسان، لدى برديائف، لا تنفصل عن الحرية الإلهية. فالحياة في الله هي الحرية

---

[100] المصدر نفسه، ص 9.

[101] نيقولاي برديائف: الحلم والواقع، ص 186.

[102] Nicolas Berdiaev: Essai D'Autobiographie, pp. 6, 7, 23.

والاستقلال. وهذا هو اعتقاده في حياته كلها. لم يعد موضوع الحرية إذن ينتمي إلى المجال الأخلاقي والنفسي، ولكنها موضوع ميتافيزيقي عن الله والحرية، وعن الحرية والإبداع، كثورة ضد العالم وضد قانونه[103].

ولكن هل المسيحية متوافقة مع هذه الثورة عند برديائف؟

يرى برديائف أن مبدأ التواضع أو الخضوع المسيحي يستبعد إمكاينة الثورة، ذلك أنه يتطلب الطاعة والخضوع. هذا هو ما أثار مفهوم برديائف للثورة والاحتجاج. فأن تكون مسيحيًا لا يعني أن تكون عبدًا مطيعًا. ولذا كان برديائف دائمًا متمردًا ثائرًا. لقد تمرد على العالم، وثورته هي ثورة الروح والشخص، وليست ثورة الجسد والجماعة. الروح هي الحرية، والحرية هي الروح. وهنا يستمر موضوع الثورة في موضوع الحرية. فالثورة تعني الشغف بالحرية. رغم أن الحرية تولد المعاناة ومأساة الوجود. وربما كانت مأساة الحرية أكثر أصالة عند برديائف، ولكن ليس من حقنا أن نطالب بالسعادة للجميع، بل بالكرامة للجميع، وبأعلى قيمة للجميع[104].

إن الغنوصية تمثل دينًا متساميًا للخلاص. ولقد حاربت الكنيسة الغنوصيين بشدة، لأنهم يهددون سلطتها، ولأن التنوير الداخلي كان خارجًا عن السيطرة. واعتبر الإطار الصوفي مسيئًا إلى حد ما، لأنه كان يميل إلى التحايل على التسلسل الهرمي الكهنوتي والتقليل من أهمية التأمل الكهنوتي، مما يجعله غير ضروري عمليًا. لقد كانت الغنوصية تمثل خطرًا على الكنيسة، لاسيما وأن الغنوصيين قاموا بتفسير نصوص تم دمجها لاحقًا في شريعة العهد الجديد. وبذا لُعنت الغنوصية باعتبارها بدعة معادية للمسيحية في نهاية المطاف[105].

وجد برديائف مع الغنوصية معنى "الفعل الإبداعي"، وهذا هو عنوان كتابه. فالغنوصية تستحق إعادة صياغتها في فلسفة جديدة، في فلسفة مستقبلية صوفية ونقدية، مدعوة لخدمة هذا الوعي الديني الجديد. ويدعم برديائف حجته بالقول إنه لا يمكن لـ "المعرفة الحقيقية" أن تولد إلا من خلال دمج التجربة الدينية بالمعرفة الفلسفية العليا. وقد كان لبرديائف كتابه "الوعي الديني الجديد والمجتمع" وكتابه "الخلود". وهذا الكتاب الأخير موجه ضد ثلاث قوى تاريخية، ثلاث تيارات قوية، تغادر المسرح وتدخل مسرح التاريخ.

)103(Ibid, p. 7.

)104(Nicolas Berdiaev: Essai D'Autobiographie, pp. 7, 8.

)105(Fabian Linda: The spiritual of Revolt, Nikolai Berdiave 's Existential Gnosticism, pp. 26-28.

١-ضد الكنيسة القديمة المحتضرة والعقل الديني القديم، الذي توقف عن التطور، وضد الدولة التي قدسها.

٢-ضد الوضعية والإلحاد والعقل (بالمعنى العقلاني القديم).

٣-ضد اللاعقلانية الفوضوية، والتصوف المشوش[106].

يمكن اعتبار "المسيحية الجديدة" أو "الغنوصية"، هي بشكل أو بآخر، جوهر ما سعى إليه برديائف باستمرار. كما تجسدوا ما يمكن ما أطلق عليه برديائف لاحقًا "الفوضوية الدينية"، إذ يُظهر بوضوح أي تيارات فكرية عارضها، وأي تأثير قوي أراد مواجهتها، ولاسيما "الكنيسة المحتضرة" المزعومة وعقليتها المتحجرة. ففي كتابه "الوعي الديني الجديد والمجتمع" يتناول برديائف التنوير الروحي لتجربته الخاصة، ونظام الغنوصية الفلسفية الدينية، وقد كان هذا الكتاب تتويجًا لنزعته الغنوصية، فقد بدأ حينها يطلق العنان لشغفه بالأصالة الدينية[107].

يتحدث برديائف عن الأرثوذكسية التاريخية باعتبارها، غير عالمية بما يكفي، بل منعزلة، بل طائفية تقريبًا. ويقول عن نفسه: إنني لست هرطوقيًا، بل أنا مفكر مؤمن حر. وهذا يرتبط بفلسفته الإبداعية التي كانت تتشكل في ذلك الوقت، وإمكانية الوحي الباطني. وكما أوضح في سيرته الذاتية، كانت التجربة الصوفية الباطنية (الغنوصية) أساسية بالنسبة له. وكان يقول عن نفسه: ما يميزني عن أولئك الذين اعتبروا أنفسهم أرثوذكسيين تمامًا، هو وجهة نظري بأن الوحي التاريخي ثانوي بالنسبة للوحي الروحي، والإعلان الداخلي للروح، هو أمر حقيقي. وهكذا يحدثنا برديائف بأنه لم يقم بإنشاء منزل كامل، بل قام بإيجاد منزل كامل[108].

علينا أن نعاني مع أولئك الذين يعانون، وأن نشارك في مشاعر كل من يعيش. وأن نرحب في أنفسنا بالمعاناة التي يدعو إليها النضال من أجل الكرامة الإنسانية، الجودة من أجل حرية الإنسان. هذا هو الصراع الذي سيطر على حياة برديائف كلها. وفي الحرية يصعد الإنسان نحو الله، وبهذه الطريقة نكتسب القوة الروحية، وعلى ذلك لا يمكن أن يكون التفكير إلا وجوديًا. ويعبر برديائف: إن ارتباطي بالله هو ارتباط وجودي ودرامي، كما أن الحب مقترن بالتضحية بالنفس باسم الحرية[109].

)106(Fabian Linda: The spiritual of Revolt, Nikolai Berdiave 's Existential Gnosticism, pp. 52, 53, 61, 62.

)107(Ibid, pp. 62, 63.

)108(Fabian Linda: The spiritual of Revolt, Nikolai Berdiave 's Existential Gnosticism, p. 64.

)109(Nicolas Berdiaev: Essai D'Autobiographie, pp. 8-11.

لقد أكد برديائف دائمًا على أخلاقيات الفرد الفريدة، ولكنه حارب أخلاقيات عامة وإلزامية. وبالنسبة له، رفض الأخلاق الجماعية، ومقاومة القيود الإلزامية. لقد رفض برديائف العهود المخالفة للحرية الإنساينة، وعهود الرهبنة. وضغوط القانون وما إلى ذلك. وفي هذا الصدد فإنه ثوري في المسائل الأخلاقية. إن برديائف يهتم بالشخص. وفلسفته كانت دائمًا واحدة فقد اهتم بالعالم الذاتي، والشخص هو الحقيقة الوحيدة. إنه الإنسان العيني المشخص، الملموس[110].

يؤمن برديائف بالحضور في التصوف العالمي، في الروحانية العالمية. أما المصادر الفلسفية فيمكن أن تكون أقصى درجة من الفكر والعقلانية، ولكن الحدس، ليس دائمًا فكريًا فحسب، بل عاطفيًا أيضًا. ومن ثم فالعالم، عند برديائف، ليس فكرًا، العالم عاطفة. ويعترف برديائف أن المنطق لم يعلمه شيئًا على الإطلاق. فالمسارات التي اتخذها برديائف للمعرفة مختلفة. لقد كان فكره الفلسفي عبارة عن صراع من أجل التحرر، وقد آمن دائمًا بالطبيعة التحررية للمعرفة. لقد سعى كثيرًا لفهم عملية تفكيره[111].

على الرغم من أن برديائف ليس من هؤلاء الذين يحللون أنفسهم. بل إنه كان على علم بنقاط ضعفه، وبأنه ليس لديه القدرة على تحليل وتطوير أفكاره. ويحدث هذا دون تجريد، ودون الخضوع لقوانين المنطق. فلم يكن يبحث برديائف عن شيء له نطاق عام، لكنه كان يغمر نفسه في الواقع الملموس، والعثور على المعنى (العاطفي) والحياة الروحية، والخبرة الروحية كمصدر المعرفة عند برديائف. وهناك الألم والفرح والصراع المأساوي الذي يشكل مصدرًا للمعرفة. فالمعرفة لغز حقيقي، الله هو سر، ومعرفة الله تجلب الشراكة في الغموض، والمعرفة العقلانية بالله زائفة، ولذا فإن فلسفة برديائف ليست علمية، إنها ذات توجه نبوي وأخروي[112].

يؤكد برديائف أن الإطار الصوفي العام كان سمة مميزة لنمط شخصيته، على عكس النمط الديني. بالإضافة إلى الآثار الحاسمة على موقفه تجاه الممارسة الدينية، فهو في رحلته لفهم نفسه، يتوصل إلى أنه إنسان متصوف بدرجة أكبر بكثير من كونه إنسانًا دينيًا. والإحساس الصوفي الأولي بالعالم هو سمة مميزة لبرديائف، كما يعبر هو عن نفسه، وفي ذلك فهو يؤمن بوجود تصوف عالمي وروحانية عالمية. وبناء على ذلك، كانت الممارسات

)110(Ibid, pp. 15, 16.

)111(Nicolas Berdiaev: Essai D'Autobiographie, pp. 14, 15.

)112(Ibid, p. 15.

الدينية المنظمة المرتبطة بالكنيسة القائمة أقل أهمية لدى برديائف من المشاركة الداخلية البدائية في حياة الروح. ولعل هذا الميل هو ما يجعلنا نكاد لا نجد في كتابات برديائف أي تكهنات، أو تأملات حول العناصر المرتبطة عادة بممارسات الكنيسة الأرثوذكسية، مثل الأيقونات والطقوس الدينية، وتقويم الكنيسة، وما إلى ذلك[113].

وعندئذ لم يكن من الممكن دمج الكائن الصوفي للكنيسة مع الكنيسة كمؤسسة اجتماعية، يبدو أن برديائف قد اختبر شعورًا متزايدًا بهذه المعضلة بالفعل في الفترة قيد المناقشة، أي فيما يتعلق بأول حوار مكثف له مع الكنيسة وبعض ممثليها حوالي 1908 وما تلاه. وسيشهد لاحقًا على خيبة الأمل في النهاية، فلم تكن هناك أي علامات على ظهور وعي إبداعي جديد داخل أرثوذكسية الكنيسة. أثبتت الكنيسة، كمؤسسة اجتماعية تقليدية، أنها أقوى من الكنيسة ككائن صوفي[114].

لطالما شعر برديائف أنه ينتمي إلى كنيسة المسيح الصوفية. إنه يقارن أيضًا بشكل تقريبي، بمصير الغنوصيين الذين دخلوا في صراع مع الكنيسة الأولى، لاسيما لإصرارهم على أولوية التجربة الصوفية والتنوير الداخلي. ومن هنا فقد توصل برديائف لفلسفته الإبداعية الأصيلة. وقد كتب في مرحلة لاحقة وصفها بأنها فترة "العاصفة والاندفاع"، وبأنها ثورة فلسفية ضد ما اعتبره نقصًا في الطاقة الإبداعية التي واجهها في الدوائر الأرثوذكسية. ولذا فقد ثار برديائف على جمود الكنيسة، والدليل تقديمه "المسيحية الجديدة" أو "الوعي الديني الجديد" كبديل للكنيسة القديمة المحتضرة، والعقل الديني القديم الذي توقف عن التطور[115].

)113(Fabian Linda: The spiritual of Revolt, Nikolai Berdiave 's Existential Gnosticism, p. 65.

)114(Fabian Linda: The spiritual of Revolt, Nikolai Berdiave 's Existential Gnosticism, p. 66.

)115(Ibid, pp. 66, 73.

نتائج البحث:

١-إن العزلة عند برديائف هي الانفصال عن العالم الموضوعي، المجرد، والانفصال عن كل سلطة، والتواصل مع الروحي الإلهي. ولهذا فهي: غربة عن هذا العالم الموضوعي، وتفرد للذات، بل وتمرد، وتأمل للذات. العزلة ثقافة روية تنحو نحو الحرية الإبداعية التي تختار الله لتتواصل معه، في تجربة غنوصية أو ربما صوفية تبتغي معرفة الله، والبحث عن الأبدي.

٢-إن هدف برديائف هو البحث عن معنى الحياة، والكشف عن الحقيقة، وهذا معناه: البحث في حياة الإنسان الباطنة، البحث عن الله، الغنوصية، التصوف. وهذا معناه العودة للنزعة الروحية. فالروح والحرية شيء واحد. فقد أقدم برديائف على الإيمان بقوة الروح، وذلك من أجل حرية الروح واستقلالها. وهذا معناه الجهاد في سبيل الحرية. ويعترف برديائف بأن محاولاته في هذا الصدد تضاعف من إحساسه بالعزلة، وتزيد من شدة صراعه مع العالم من حوله، ولكنه لم يكف طيلة حياته عن أن يكون متمردًا.

٣-يرفض برديائف السلطة، أي سلطة، ويراها نوعًا من الاستعباد، على الإنسان أن يتحرر منه. وشر أنواع العبودية هي استعباد الإنسان لنفسه. واستعباد الدولة الكلية، فهي تبسط سلطانها المطلق على الضمير والفكر، من أجل الخضوع للسلطة والقوة والإرهاب والتعذيب. كما يرفض برديائف السلطة الاقتصادية، والاجتماعية، وكذلك سلطة العلم، وذلك في سبيل تحقيق الحرية، وهذا يستلزم محاولة بطولية وجهدًا ومعركة كمأساة الحياة وصبرًا على آلامها.

٤-قد تكون العزلة إيجابية لأن غايتها هي المشاركة الفعلية في المجتمع. فليس معنى العزلة الانعزال عن المجتمع، فبرديائف ليس انعزاليًا، بل إنه تطلع إلى الروح الإلهي، والعزلة هنا انفصال عن العالم الموضوعي، وتواصل مع الله. وعلى الرغم من أن برديائف كان يصف نفسه بأنه لااجتماعي يحب العزلة، لكنه مع ذلك كان منخرطًا في الأحداث الواقعية. إن مهمة برديائف بناء شخصية روحية خلاقة، متصوفة، لا تخضع لسلطة وعبودية، متحررة، خلاقة تسعى لبلوغ الأبدية. فالأنا تتهددها العزلة، ولكنها تحاول باستمرار أن تعيد تكاملها وأن تتغلب على عزلتها، وتطور الأنا في طريق طويل من الحرية.

٥-ترتبط العزلة بالحرية الإبداعية، فالحرية لا تعني بالضرورة العيش في عزلة حقيقية، حيث تصبح العزلة تأملاً للذات، تنتظر الروح، فالعزلة حنين نحو العالم الروحي والطموح المتعالي ومن ثم فإن الحياة الخلاقة تشير لا إلى نظام الضرورة، بل إلى نظام الحرية. والإبداع يُفهم كقاعدة على أنه تصور جمالي. وقد اعترف برديائف قائلاً: "إنه ليس الوجود، بل الحرية هي التي تمثل توجهي"، ولذا يدعي برديائف أنه فيلسوف الحرية. ولذا ينبغي تقديس الحرية. فالتجربة الروحية التي استند إليها برديائف هي فكرة أولوية الحرية على الوجود، وهذا يعني أولوية الروح، ولذا تسمى بالحرية الإبداعية.

٦-ترتبط العزلة بالغنوصية والتصوف، وكذلك الحرية. وقد أشار برديائف إلى رؤيته الغنوصية، وارتباط الحرية بالغنوصية، فالحرية هنا حرية عبقرية، إبداعية، خلاقة، إنها حرية الروح، إبداع الإنسان الحر، الحرية ليست ما يمكن للإنسان أن يطلبه من الله، بل ما يطلبه الله من الإنسان. ومن خصائص الحياة الدينية أن الإنسان المشارك فيها، سيتغلب على عزلته، ويدخل في اتصال روحي مع غيره من الناس، وأحيانًا لا يجد برديائف فكاكًا من هذه العزلة ،إلا بوسائل المعرفة والمحبة، والصداقة، والحياة الاجتماعية، والأعمال الأخلاقية، والاتصال الروحي بالله. ولذا فالدين محاولة للتغلب على العزلة، وتحرير الأنا من انعزالها، وإلى تحقيق الاتصال الروحي الحميم، فالله وحده هو القادر على قهر العزلة وهذا يقودنا إلى الدراما الصوفية والتجاء الإنسان لله اللامتناهي. وقد أشار برديائف إلى رؤيته الغنوصية، وارتباط الحرية بالغنوصية. وربما اقترب برديائف من كونه صوفيًا أكثر منه غنوصيًا. وعلى أية حال تعد فلسفة برديائف فلسفة صوفية، إذ إن جوهر الإنسان هو معرفة الذات والله.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً– المصادر الأجنبية المترجمة للعربية:

–نيقولاي برديائف (1960): العزلة والمجتمع، ترجمة: فؤاد كامل عبد العزيز، مراجعة: علي أدهم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

–نيقولاي برديائف (1984): الحلم والواقع، ترجمة: فؤاد كامل، مراجعة: علي أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ثانيًا– المراجع الأجنبية:

–Anil Gones (2020):The Priveledge of Boredom: How Philosophy Can happen in Isolation, Trinity College, Oxford, March. https://philpapers.org/archive/GOMTPO-9.pdf

–Baloyannis J. Stavros (2015): The philosophy of solitude, Aristotlle university of saloniki, Article, June. https://www.researchgate.net/publication/276914644_The_philosophy_of_solitude

–Benlazare Mijuskovic (2012): Loneliness in Philosophy, Psychology, and literature. I universe, Inc, Bloomington.

–Fabian Linda(2010): The spirit of Revolt, Nikolai Berdiave's Existential Gnosticism, Acta universitatis stockholmists.

–James Wayne Dye (2025): Nikolai Berdyaev and His Idea on the fundamental Nature of All Entities, Northern Illions University, Dekallb, 111, U.S.A.

–John Cowper Powys (1933): A philosophy of solitude, Simon and Schuster, New York.

–Lars Fr. H. Sevendsen (2015): A philosophy of loneliness, Ensomhetnes Filosofi, universites Forlagel.

–Marek Jediński(2023): Russian Yearning for Elite power: Nikolai Berdyeav's reflections on the metaphysics of democratism, Adam Mickiewicz University, Pozanan, Poland.

–Nicolas Berdiaev (1958) : Essai D'Autobiographie, Spirituelle, Buchet-Chestel, Paris. https://www.democratieetspiritualite.org/wp-content/uploads/2020/12/BERDIAEF-EXTRAITS-pdf-1.pdf

–Panteleimon Pavlincicuc : The House of Berdyaev. A place of convergence between culture, religions practices and philosophical Ideas. https://rprt.northwestern.edu/people/research-scholars/the-house-of-berdyaev-a-place-of-convergence.pdf